رواية

# المهندسة.. ملاك الرحمة


الأسير المهندس

عبدالله غالب البرغوثي

تقديم

الإعلامية فاطمة القاضي



الفرسان للنشر والتوزيع

صندوق الكتب BOXOKS

الكتـــــــاب: المهندسة.. ملاك الرحمة

المؤلـــــــف: عبد الله غالب البرغوثي

التصميم والإخراج: كمبيوتر إكسبرس - عمان - 360 5698 6 962+

الإشراف العـــام: م. حســـــن صالــح

---

جميع الحقوق محفوظـــــة لدى

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

يحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخـــراج هذا الكتـــاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو الممغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلاّ بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©

*Al Fursan Est. For Publishing & Distributing*

No part of this publication may be reproduced or distributed
in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system,
without the prior written permission of the publisher.

**الطبعة الأولى**

1438هـ - 2017م

9789957606916 ISBN

رقم الإيداع 4398/09/2016

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

*Al Fursan Est. For Publishing & Distributing*

Jordan - Amman - Abdaly | الأردن - عمان - العبدلي
Tel. +962 6 560 73 87 | هاتف: ٧٣٨٦ ٥٦٠ ٦ ٩٦٢+
Fax. +962 6 565 53 70 | فاكس: ٣٤٧٠ ٥٦٦ ٦ ٩٦٢+
P.O.Box 240664 Amman 11124 Jordan | ص.ب ٢٤٠٦٦٤ عمان ١١١٢٤ الأردن
E-mail: alfursan111@yahoo.com

# التمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

كم هو صعب وقاسٍ على المقاوم الذي سلبت منه البندقية التي تعوّد على إطلاق الرصاص الحرّ منها..

أن يمسك بقلم رصاص الأسر كالعاجز كي يكتب..

ظانًا أنّه بفعله هذا يقاوم..

لكن الأصعب والأقسى من ذلك هو أن يتوقف المقاوم الحرّ عن المقاومة..

لأنّه عندها سيموت..

لذلك عزمت على تحويل ذكرى رصاص بندقية حريّة الأمس واقعًا حيًا من خلال قلم رصاصي..

رغم القيد والأسر..

كيف لا ؟ وقد أصبحت على قناعة يقينية تامّة مفادها أنّ الكاتب الحرّ المقاوم هو الذي يشذّب ويهذّب (عواصف العواطف الحية الحرّة) لكي يقوّيها وينقّيها ويوجّهها نحو طريق الحرية والمقاومة والجهاد وصولًا إلى الانتصار.

فالأبيض عند صاحب القلم الحرّ أبيض.. والأسود عنده أسود..

فهو لا يعرف رماديّ اللون والطعم..

الحقّ عنده حقّ.. والباطل عنده باطل..

فلا مراوغة ولا مداورة ولا مداراة..

أمّا الكاتب.. العبد المهادن.. فهو كاتب السلطان والحاكم والسلطة..

هو ذلك المنافق الموهن الذي يشتّت ويفتّت (عواصف العواطف الحيّة والحرة) لكي يدنّسها ويعبث بها..

موجّهًا إيّاها نحو طريق الذلة والخنوع والهزيمة والاستسلام..

فالأبيض عند صاحب القلم العبد المنافق أسود.. والأسود عنده أبيض..
وكلاهما رمادي اللون والطعم..
الحقّ عند باطل.. والباطل عنده حقّ..
وكلاهما نفاق وشقاق وتضليل..

نظرًا لما سبق.. سيجد كلّ من يقرأ رواية (المهندسة.. ملاك الرحمة)، أنّها رواية متخمة بالتنظير الأيدولوجي الجليّ، الذي لا مواراة فيه ولا مداراة، بالإضافة لعلوّ في الخطاب السياسي الموجّه بشكل صارخ، على الرغم من أنّ ما بين يديه لا يعدو كونه مجرّد رواية من نسج خيالي أنا كاتبها!

وهنا تكمن المشكلة والحلّ أيضًا، بل هنا يكمن السرّ، فخيال قلم اليوم، هو واقع بندقية الأمس، أي أنّ خيالي ككاتب هو واقعي كمهندس مقاوم، مهندس حكم الصهاينة عليه بالسجن لمدة سبعة وستين مؤبّدًا بالإضافة لخمسة آلاف ومئتي عام، وهو أعلى حكم ضدّ أسير في تاريخ القضية الفلسطينية.. قضية صراع الحقّ الفلسطيني ضدّ الباطل الصهيوني.

من خلال رواية (المهندسة.. ملاك الرحمة)، أحاول أن أقوّي وأنقّي وأوجّه (عواصف العواطف الحيّة الحرّة) لدى (ملاك) بطلة روايتي لكي لا تحيد عن طريق الحقّ، طريق المقاومة والحرية، حتّى تصل إلى الانتصار.

(ملاك) امتشقت سلاح علمها وحوّلته إلى عمل مقاوم، فقاتلت.. وقاتلت.. وقاتلت!

# الإهداء

أهدي روايتي هذه إلى الملائكة.. الاستشهاديّات اللواتي أهدين لنا الحياة.. إلى:

الاستشهادية الأم والجدة فاطمة النجار

الاستشهادية الأم والجدة ثروت الشعراوي

خنساء فلسطين أم نضال فرحات

وإلى:

الأم الاستشهادية ريم الرياشي

الأم الاستشهادية حنان السباتين

وإلى الاستشهاديات:

هنادي جرادات

آيات الأخرس

هديل الهشلمون

إلى أخوات المرجلة الفلسطينيات الثائرات والسوريّات والعراقيّات والمصريّات الثائرات، وإلى التونسيات الليبيات الثائرات، إلى أخواتي في كلّ مكان اللواتي حملن السلاح والقلم والعلم للدفاع عن الحقّ.

**المهندس الأسير عبدالله البرغوثي**

**أبوأسامة القسام**

**أمير الظل**

# فهرس المحتويات


| | |
|---|---|
| التمهيد | ٣ |
| الإهداء | ٥ |
| الفصل الأوّل: الدكتورة ملاك | ٧ |
| الفصل الثاني: للنبل عنوان | ٢٠ |
| الفصل الثالث: عرس الشهيد | ٢٦ |
| الفصل الرابع: مقابر الأحياء | ٣٦ |
| الفصل الخامس: الحساب المفتوح | ٤١ |
| الفصل السادس: بيان رقم واحد | ٥١ |
| الفصل السابع: ناقلة الوقود | ٥٥ |
| الفصل الثامن: المهندسة | ٦٠ |
| الفصل التاسع: قلب أخي | ٦٦ |
| الفصل العاشر: الإرهابية | ٧٤ |
| الفصل الحادي عشر: الاستشهادية | ٨٠ |
| الفصل الثاني عشر: ملائكة وشياطين | ٨٩ |
| الفصل الثالث عشر: صوت الحرائر | ٩٥ |
| الفصل الرابع عشر: أمّهات فلسطين | ١٠٢ |
| الفصل الخامس عشر: في سبيل الله | ١١٠ |
| الخاتمة | ١٢٢ |

# المقدمة

المهندسة.. ملاك الرحمة

عاصفةٌ أخرى من عواصف التحدي والقُوة، يُبدع فيها الكاتبُ مجدداً، روايةٌ أخرى يُبدعُها ذلك القلم بأمرٍ من تلك العقلية الفذّة، ويُبحر بين كلماتها وسطُورها في رسم العبارات المُؤثرة والجذابة التي من شأنها أن تخطف قلوبنا وعقولنا وتسير بها في طريقٍ غير معلوم.

مجدداً.. إعلمُوا يا كرام أن الكاتب «عبدالله غالب البرغوثي» وهو ليسَ روائياً أو شاعراً، بل هو مقاوم.. مقاتل، وهو صاحب أعلى حكم في تاريخ القضية الفلسطينية، وهو أيضاً صاحب أكبر ملف أمني لدى جهاز الشاباك الصهيوني...

رواية.. «المهندسة.. ملاك الرحمة» إضاءةٌ بسيطة جداً ومتواضعة لبعض قصص المواجهة بين مقاومة المرأة الفلسطينية والاحتلال، وعملاء الإحتلال، فبطلة هذه الرواية إسمها «ملاك».

وإنه لا يخفي علي كل مسلم وفلسطيني ما تمرّ به فلسطين بشكل عام، ومدينة القدس بشكل خاص، من حرب حقيقية موجهة للعقيدة والدين، وليس بعيداً عن هذا كلّ الهجمات والانتهاكات اليهودية المتكررة علي المدينة المقدسة، والتي باتت تأخذ طابع اليومية علي المسجد الاقصي، حتي بلغت الهجمة والجراة من بني صهيون بالتهجم والاعتداد علي المراة الفلسطينية والمرابطات المقدسيات، تارة بخلع حجابهن، وتارة باستفزازهن، وتارة باعتقالهن واستشهادهن،،

فلا مجيب لصرخاتهن! الإ من فتية وفتيات آمنوا بربهم، تصدوا بأجسامهم الغضة لآلة الحرب والقتل الصهيونية، حملوا حجارتهم وسكاكينهم وركبوا سياراتهم باحثين عن الجنود المدججين، الذين ما برحوا من التعذيب والتنكيل بالأم الفلسطينية بشتي انواع التنكيل وألوانه.

فهنا كان دور كبير للنساء في تحريك انتفاضة القدس, أو انتفاضة «حرائر القدس» وأخذنَ يثخنَّ في أعداء الله المحتلين قتلاً، دهساً وطعناً وضرباً وجرحاً..

أحلام فتيات فلسطين وأحلام (ملاك الرحمة) تأخذ طابعاً يليق بحجم هذا الشعب وتضحياته, وطموحاته، فقد كانت أحلامها التي لا تملُّ من ترددها لصديقتها ولجدتها ولوالدتها «تحرير فلسطين بالكامل»، حلم في سبيله قضي آلاف, وآلاف آخرون في الانتظار, وما بدلوا تبديلا..

حلم ما كان له أن يتحقق إلا أن تبذل دونه النفوس والأرواح.

نعيش معاً تلك الكلمات التي سطرفيها أمير الظل جولات من البطولة والعظمة بإبداع, وتفاني منقطع النظير لتصل هذه الفكرة لكل إنسان أوتي ذرة من قوة لأن يصنع المستحيل من أجل (ملاك الرحمة) فهذا الكتاب خرج من رحم الوعي, ليحارب العدو الصهيوني المحتل.

لا يسعني إلا أن أترك القارئ يجوب خضم هذه الرواية التي قرأتها مرات ومرات لما سطرته من تضحيات جسام، فهي إضاء بسيطة من قلب الألم والمعاناة.

**الإعلامية فاطمة عادل القاضي**

**فلسطين - غزة**

# الدكتورة ملاك

«الدكتورة ملاك نجحت بالروضة! الدكتورة ملاك نجحت بالابتدائية! الدكتورة ملاك نجحت بالإعدادية! الدكتورة ملاك نجحت بالثانوية العامّة وبمعدّل كبير يتيح لها وبسهولة دراسة الطبّ لكي تصبح دكتورة!»

ما إن تمّ الإعلان عن نتيجة امتحانات الثانوية العامّة حتى علا صوت زغاريد والدتي الحبيبة معلنة عن اجتيازي للعقبة الأخيرة في طريق تحقيق حلمها الأكبر، والمتمثّل باجتيازي نهر الأردنّ لكي أدرس الطبّ في إحدى الجامعات الأردنية، ناسية أو متناسية أنّ نهر الأردنّ ما عاد نهرًا منذ حلّ غراب الاحتلال الصهيوني على أرض فلسطين.

لقد كان حلم والدتي التي تعمل ممرضةً في أحد مشافي مدينة القدس المحتلّة، منذ اليوم الأوّل لولادتها إيّاي، أن أصبح طبيبة، لذلك سعت وجهدت بكلّ قوّة وعزم على تذليل كافة العقبات والصعاب التي واجهتني لكي أحقّق لها حلمها هذا، الذي كاد أن يصبح كابوسًا بالنسبة لي.

فعلى الرغم من أنّ والدتي قد نجحت بدفعي إلى النجاح والتفوّق والتميّز الدراسي، إلّا أنّها لم تكتفِ بذلك، بل إنّها قامت بتوجيه اهتمامي نحو دراسة الطب، فعلى سبيل المثال قامت والدتي بتحويل غرفة نومي إلى ما يشبه العيادة الطبيّة؛ فسرير نومي الأبيض هو من ذلك النوع يستعمل في المشافي، أمّا مكتبي الدراسي فقد وضعت عليه لوحة جميلة ومزخرفة مكتوب عليها (الدكتورة ملاك)، وفي إحدى زوايا الغرفة هناك هيكل عظمي منتصب بلا لحم ولا شحم، نعم.. هيكل عظمي تعليميّ بلا شحم ولا لحم، ولا وجود في غرفتي للقلوب الوردية والحمراء الدالّة على مشاعر الحبّ، بل إنّ القلب الوحيد الموجود في غرفتي هو ذلك القلب التعليمي الذي يجسّد آلية عمل القلب في الجسد، فالقلب في نظر والدتي ليس سوى مضخة نابضة بالحياة الربّانيّة، التي تجعله يضخّ الدماء إلى سائر أعضاء الجسد.

فلا قلوب حبّ، ولا قلوب عشق، ولا قلوب هيام عندي! ولا أدوات تستعمل في التجميل عندي أيضًا! فأنا لا أملك أحمر للشفاه، ولا أسود للرموش، ولا ورديّ للخدود، ولا أبيض للأظافر، ولا أشقر للشعر.. ولا أصفر.. ولا أزرق.. ولا أخضر.

فالألوان الموجودة في غرفتي هي تلك التي تكتسي بها أغلفة الكتب التي تملأ الغرفة، وهي بالطبع كتب دراسية وعلمية، فهذا الكتاب الأحمر يتحدّث عن علم تشريح الضفادع، وذلك الكتاب الأزرق يتحدّث عن الدورة الحياتية للفراشة، والذباب، والنحل، والدود، وكأنّي قد أصبحت دودة تأكل الكتب أكلًا، حتّى باتت صديقاتي يطلقن عليّ لقب (ملاك.. دودة الكتب).

فغرفتي لم تكن ملكي يومًا من الأيّام، فهي ملك أمّ الدكتورة ملاك، أمّ الدكتورة التي رزقها الله تبارك وتعالى بثلاثة أولاد قبلي، وأنا الفتاة الوحيدة، وقد كان كلّ أخوتي من الحاصلين على الشهادات العلمية العليا، فهذا دكتور الفيزياء والمحاضر الجامعي أسعد، وذلك ماجد طالب الماجستير في العلوم الشرعية، وآخر عنقود الأولاد كان مالك خريج كلية الصحافة والإعلام، والذي يعمل مراسلًا لإحدى القنوات الفضائية المقاومة، وبالرغم من وجود هؤلاء الأخوة الثلاثة الذين يكبروني عمرًا ومكانة دراسيّة وعلمية، إلّا أنّ أمّي ومنذ نعومة أظافري تحرص على أن يناديها الناس بلقب (أم الدكتورة) ملاك.

ملاك وما أدراك ما ملاك.. ودلع ودلال أخوة وأب ملاك لملاك؟!

بل وما أدراك ما ملاك.. وجديّة وصرامة أمّ الدكتورة ملاك مع ملاك!

سبق وأن قلت أنّ غرفتي لم تكن ملكي، وأنّ الكتب التي تملأ مكتبتها هي كتب أحضرتها لي والدتي.. وهذه حقيقة، لكن الحقيقة المطلقة هي أنّ غرفة أخي مالك كانت ملكي أنا، فلا يوجد رواية أو قصّة أو حتّى كتاب سياسيّ في مكتبة أخي مالك، إلّا وقد قمت بقراءته، بل إنّ مالكًا كان يشتري لي كلّ ما أطلبه منه من كتب وروايات وقصص، وكان ذلك كله يتمّ بصمت، أي دون علم ومعرفة أمّ الدكتورة، وذلك يعود لكون علاقتي مميزة جدًا جدًا بملاكي وأخي مالك، حتى أنّنا نتشابه في العديد من الصفات مثل العناد والتمرّد وحبّ المقاومة، وحبّ الكتابة الصحفية.

فالطبّ بالنسبة لي ما هو إلّا حلم لوالدتي، ومهنة لا أمانع أن أمتهنها، أمّا هوايتي التي أجد فيها نفسي ومتعتي فكانت الكتابة الصحفية الجريئة والناقدة، فعندما أمسك بالقلم لأكتب إحدى المقالات، أشعر أنّي تحرّرت من قيد الطبّ ودراسته التي لم تبدأ بعد، بل إنّي أشعر وكأنّ قلمي غدا سكّينًا تطعن المحتلّ الصهيونيّ والمنحلّ الأوسلويّ، اللذين احتلّ أحدهما البلاد، وعاث الآخر بها فسادًا.

وبالعودة إلى بداية الحكاية حيث زغاريد أمّ الدكتورة، التي توّجت بعبوري أنا وأمّي وأبي الجسر الحدودي الواصل والقاطع، ما بين فلسطين الأسيرة المحتلة وما بين الأردنّ، لكي يقوما بتسجيلي في إحدى الجامعات المتخصّصة بالطبّ هناك، وبتأمين مكان إقامة لي عند جدّتي أمّ عامر كما كانا يتمنّيان.

فجدّتي أمّ عامر كانت تقيم في منزل كبير جدًا، لا يسكنه سواها مع العديد من الخادمات، وهو مقام إلى جوار فلل ومنازل أخوالي عماد وعدنان وعامر خالي الأكبر هناك في العاصمة الأردنية عمّان، فمنذ وفاة جدّي رحمه الله ترفض جدّتي الانتقال للعيش عند أيّ من أخوالي أو خالاتي رغم محاولاتهم المستمرّة لإقناعها بذلك.

فأمّ عامر تردّد جملة مشهورة لها على مسامعهم كلّما حاولوا إقناعها بالعيش عند أحدهم وهي تقول فيها أنها لا تحبّ ولا تريد أن تكون ثقيلة الظلّ على أحد، حتّى لو كان ذلك الأحد أحد أبنائها أو بناتها.

وقد اصطدم موضوع إقامتي عند جدّتي بشرطها الوحيد، والمتمثّل بقبول والدي بأن تتكفّل جدّتي بكافّة مصاريف دراستي، حيث أنّها ومنذ أعوام عديدة طرحت هذه الفكرة على مسامع والديّ فوافقت أمّي ورفض أبي، وهذا ما دفع والدي إلى إلحاقي بإحدى الجامعات التي يوجد فيها سكن داخليّ للطالبات، ممّا أغضب جدّتي أم عامر غضبًا ما بعده غضب.

ولم يتمكّن كلا والديّ من مصالحتها وإرضائها إلّا بعد موافقة والدي على مضض بشرطها المتمثّل بأن تشتري لي سيّارة لكي أمضي العطلة الأسبوعية عندها في عمّان، حيث أنّ جامعتي كانت بعيدة بعض الشيء عن مسكن جدّتي أمّ عامر.

وما هي إلّا أيّام على تسجيلي في الجامعة حتّى عاد والدي إلى مدينة القدس ليواصل عمله هناك، تاركًا والدتي التي أصرّت على البقاء في عمّان عدّة أسابيع، وذلك من أجل مساعدتي في الحصول على رخصة لقيادة السيارة، وشراء ما يلزمني من ملابس ومستلزمات جامعية، أمّا السبب الأهمّ حسب رأيي لبقاء والدتي إلى جواري فقد تمثّل بمساعدتي على التأقلم، وعدم التصادم مع المحيط الذي انتقلت للعيش فيه، بما فيه من أخوال وخالات، وأبنائهم ثقال الدمّ والظلّ، وبناتهم المدلّلات (المايصات) الكاسيات العاريات.

فبقدر ما كان مجتمعي المقدسيّ المكوّن من أقارب والدي وهم الأعمام والعمّات ومن يدور في فلكهم ملتزمين متدينين، بل ومن المرابطين في المسجد الأقصى، بقدر ما كان أبناؤهم من ذلك النوع الجدّيّ والعمليّ والثائر بوجه الاحتلال الصهيونيّ والملتزم بالأخلاقيات الإسلامية، بقدر ما كانت بناتهم من المحجبات والمنقّبات والملتزمات بمتابعة دروس العلوم الشرعية والعقائدية في مصاطب العلم التي تقام في باحات المسجد الأقصى المبارك، كان بنات وأبناء أخوالي وخالاتي من الحريصين والحريصات على أسلوب الحياة الغربية (المفكّكة) الأمريكية، حيث ولدن وولدوا وكبروا وترعرعوا، قبل أن يقرّر جدّاي وأخوالي الانتقال إلى العيش والإقامة الدائمة في العاصمة الأردنية عمان، وذلك في أعقاب موجة الكراهية والعنصرية المتزايدة، ضدّ كلّ من ينتمي إلى العالم العربي والإسلامي في تلك الولايات الأمريكية (المفكّكة) دينيًا وأخلاقيًا وإنسانيًا وفكريًا.

بعد مرور ما يزيد على الشهرين لعودة والدي للقدس قرّرت أمّ الدكتورة ترك الدكتورة وحيدة في عمّان من أجل العودة إلى مدينة القدس المحتلة، وذلك ليس لأنّها أنهت مهمّتها في عمّان، بل لأنّ القدس أعلنت انطلاق الانتفاضة الفلسطينية الثالثة، الانتفاضة التي أشعلتها حرائر القدس المرابطات، وذلك عبر رباطهنّ المتواصل في مصاطب العلم المقدسية، وعبر صدّهنّ للمستوطنين الذين يحاولون تدنيس باحات الأقصى، لذلك سمّيت هذه الانتفاضة بانتفاضة (حرائر القدس) وسمّاها البعض انتفاضة القدس، أمّا ذلك الغبيّ العبثيّ،

سيّد عبيد التنسيق الأمنيّ الأوسلويّ المقيت، فقد قال أنّها مجرّد هَبّة لا أكثر ولا أقلّ، وأنّها ستندثر لأنّها لا تزيد عن زوبعة في فنجان. أمّا أنا وأمّي فقد أطلقنا عليها اسم انتفاضة طرد المحتلّ والمنحلّ، أي انتفاضة طرد المحتلّ الصهيوني المجرم والمنحل العميل الأوسلوي!

إلى القدس والدتي عادت لتكون إلى جوار حرائر القدس، وإلى جوار أخي مالك الذي كان قد أصيب برصاصة في ذراعه الأيمن أثناء تغطيته لإحدى المظاهرات التي كانت تعجّ بها مدينة القدس بشكل خاص وسائر المدن الفلسطينية بشكل عام، فمالك أخي كان يعمل مراسلاً وصحفيًا في إحدى القنوات الفضائية المقاومة، والتي كانت تبثّ إرسالها من القدس والضفة الغربية بشكل سريّ للغاية؛ لأنّها ملاحقة من قبل الاحتلال والانحلال الغرقديّ، وترسله لمقرّها الرئيسي هناك في قطاع غزة العزة، لأنّه كان أنسب مكان لاحتضان تلك القناة الفلسطينية المسمّاة (قناة الأقصى) ولاحتضان صحيفة فلسطين اليومية الناطقة باسم المقاومة هي وصحيفة الرسالة الأسبوعية، وراديو الأقصى الذي كنت أستمع له طوال الوقت.

وبقدر ما كانت أمّي قلقة على مالك عندما علمت بخبر إصابته بالرصاص قبل سفرها إلى القدس، بقدر ما كانت مطمئنة على وضعي الدراسي والحياتي، لذلك سافرت وهي على ثقة بأنّي لن أغيّر أو أبدّل في طريقة عيشي المنضبطة والملتزمة دينيًا وخلقيًا، فقد وصلت والدتي إلى قناعة مطلقة بأنّ طريقة عيش بنات خالاتي وأخوالي لن تؤثّر عليّ بأيّ شكل من الأشكال.

انخرطت والدتي حال وصولها إلى القدس رويدًا رويدًا في المشاركة بأحداث انتفاضة التحرر من الاحتلال والانحلال، عبر مساعدتها للجرحى بحكم عملها كممرضة، وعبر مواصلتها الرباط مع أخواتها المرابطات في باحات المسجد الأقصى المبارك.

أمّا أنا فقد اندمجت وبحذر مع محيطي الجامعيّ والأسريّ الجديد، وكنت أمضي وقتي متنقلة بين المحاضرات الجامعية هناك في كليّة الطبّ،

وبين محاضرات جدّتي أم عامر هنا في منزلها، حيث كنت أمضي عطلة نهاية الأسبوع.

لقد انقسمت المحاضرات الجامعية إلى قسمين: أوّلها المحاضرات النظرية التي تقدّم لنا عبر دروس يقدمها لنا دكاترة المواد الدراسية في قاعات المحاضرات، وثانيهما هو العملي الذي يقدّم لنا في المختبرات، حيث كنّا نقوم بعمليّات لتشريح الضفادع، تمامًا مثلما كنت أفعل أنا وأخي مالك في باحة منزلنا في القدس.

كان مالك هو من يقوم باصطياد الضفادع، وكنت أنا عمليًا من تقوم بعملية التشريح، فأنا فتاة وحيدة بين ثلاثة أخوة، لذلك كنت أعيش حياتي وأتصرّف كأنني أخوهم الرابع.

أمّا محاضرات جدّتي أم عامر فكانت هي الأخرى تنقسم إلى قسمين: الأوّل يتمثل في محاولة إقناعها إيّاي بأني فتاة، وثانيهما محاولة جعلي أتصرّف على أساس أنّي فتاة؛

«ملاك اسمك ملاك وليس مالك»

«أنت الدكتورة ملاك، وهذا يعني أنّك ملاك للرحمة»

«مالك صحفيّ ثائر ومتهوّر، أمّا أنت فلا»

«توقفي عن لكم كيس الملاكمة الموجود في غرفتك، بل قومي وعلى الفور بإلقائه في حاوية القمامة»

«عندما نويت أن أشتري لك سيارة أيتها المشاكسة توقعت أن تختاري سيارة حمراء اللون أو صفراء مكشوفة السقف أنثوية الشكل، وإذا بك تختارين جيبًا ذهبي اللون مخيف المنظر، لا يصلح إلّا لمصارعة الثيران، وهدم الأسوار والحيطان».

«حجاب وجلباب أمر أستطيع تقبله، ولكن حجاب وجلباب وحذاء رياضي هذا ما لا أستطيع تقبله أو استيعابه».

تلك كانت بعض الجمل التي تستعملها جدّتي في محاضراتها التي تواصل إلقاءها عليّ عندما أحضر لزيارتها في نهاية الأسبوع الدراسي، وهي تكرّر تلك المحاضرات بلا كلل ولا ملل.

أمّا أنا فما زلت ثابتة على موقفي الذي أصرّ على عدم التزحزح عنه قيد أنملة، فما زلت أواصل ارتداء الحذاء الرياضي لأنّه يريحني أثناء المشي والتنقل بين قاعات المحاضرات الجامعية، ويريحني أيضًا أثناء قيادتي (لجحدر) وهو الاسم الذي أطلقته جدّتي على سيّارتي الجيب، أمّا كيس الملاكمة فهو للتدرب على لكم أي أحد يحاول الاعتداء عليّ، وأستعمله أيضًا لكي أريح نفسي من ضغوط الحياة والدراسة، فبلكمي له أفرّغ غضبي، وهذا ما كان يثير جنون وغضب جدّتي، وكنت في بعض الأحيان أعلّق على كيس الملاكمة صورًا لأشخاص تجرّدوا من الإنسانية فأصبحوا حيوانات ناطقة، وآخرون تجرّدوا من الوطنية فأصبحوا عملاء ناهقة؛ فما بين صورة (النتن)، و(العابس)، كان هناك صورة لدعيّ منبر أوسلو (المهبوش) وصورًا أخرى للعديد من قادة سلطة أوسلو المنحلّة وطنيًا ودينيًا وأخلاقيًا.

كنت ألكم الصور المعلقة على كيس الملاكمة، اللكمة تلو اللكمة، ولا أتوقّف إلّا بعد أن تتمزّق من شدّة اللكم، وتقع مغشيًا عليها، فأدوسها تحت قدميّ، وكأنّي أدوس رؤوس أصحابها دوسًا، ثمّ أواصل اللكم، حتى تتعب يداي، وما إن ترى جدّتي ذلك المنظر حتّى يجنّ جنونها ويعلو صوتها معلنة بدء إلقائها للمحاضرة الأسبوعية المعتادة، فأستمع لتلك المحاضرة بصمت وهدوء، وما إن تتوقّف جدّتي عن الكلام لتلتقط أنفاسها حتى أنطلق معلنة أنا الأخرى عن بدء محاضرتي المضادّة بأدب فأقول:

آه منك يا أم عامر الحبيبة، ألا ترين أنّ الأقصى يدنّس، والقدس تنتهك على يد المحتلّ الصهيوني، الذي يعيث دمارًا في البلاد، وتقتيلًا في العباد؟ وأنّ المنحلّ الأوسلويّ العميل يعيث في الأرض فسادًا وإفسادًا في مناطق سلطته الأوسلوية؟! جدّتي الغالية، أخي مالك أصيب برصاصة قاتلة ونجا منها، لكنّ جرحه ما زال ينزف، وأنا كذلك أنزف وأتألّم لألمه ونزفه، صديقتي التي درست معها في مدرسة القدس قاومت فاستشهدت.. هكذا بكلّ بساطة، أمّا صديقتي الأخرى التي سبق وأن درست معها زمن الطفولة في الروضة والابتدائية.. كبرت مثلما كبرت، لكنّها لم تكمل دراستها الجامعية، وذلك لأنّها قاومت وقاومت،

فأُسِرَت واعتقلت، وبالأعوام الكثيرة حكمت، وخلف الأسوار السميكة والقضبان الكثيفة سجنت، وعذبت وتألمت ونزفت، أمّا أنا ففي هذه الفيلا الواسعة الجميلة، ذات الحديقة العامرة بالأزهار والورود ألهو وألعب!

جدّتي الحبيبة بالقدس أنا ولدت، وهناك كبرت وترعرعت، ولهناك أيضًا سأعود كي أقاوم وأقاوم، وقد أُستشهَدُ أو أُعتَقَلُ، أو إلى جوار صديقتي أزجّ وأسجنُ لكي أُعذّب وأُعذّب.. وأتألّم.

مقاومة واستشهاد، مقاومة واعتقال وسجن وعذاب وألم، تلك هي الأحوال هناك في القدس، هناك في عاصمة فلسطين، كلّ فلسطين، فلسطين النهر والبحر، فلسطين الجبل والسهل. هل تبكين يا جدّتي؟ نعم إنّك تبكين حزنًا وألمًا، جدّتي الحبيبة لا تبكي فقدري أن أكون ملاكًا في الجنة بإذن الله تبارك وتعالى، لا ملاكًا في المشفى أداوي جراح المرضى، قدري أن أكون ممّن يقطّعن أوصال الصهاينة المحتلين وأعناقهم بسكّين، فسكّيني لهذا وُجِد، لا لتقطيع البصل وصنع (السَّلَطَة) في المطبخ.

كنت أنتظر مرور الأيّام حتّى أعود إلى القدس، لكنّ ذلك لم يحدث، فقد حضرت والدتي أم الدكتورة إلى عمّان بحجة مرض أو تمارض جدّتي، وما أدراكم ما جدّتي (وكهن ومكر) جدّتي، التي حالت بيني وبين العودة إلى القدس، على مدى أعوام دراستي في الأردنّ! ففي كلّ عام كانت تختلق سببًا ما يحول بيني وبين عبوري الجسر الواصل والقاطع بين ضفّتي نهر الأردنّ الذي غدا مجرى للمياه العادمة.

جدتي.. تارة أجدها قد مرضت مرضًا شديدًا يوجب ملازمتي إيّاها، وتارة تنتهي صلاحية جواز سفري، فلا يجدّد إلّا بعد فوات الأوان، ومرة أجدني ملزمة لمرافقتها لأداء العمرة أو الحجّ، وتارة أجد نفسي قد مُنعت من السفر لفلسطين لأسباب أمنية لا أعلمها، أمّا جدّتي (الكهنونة الماكرة) فقد تكون ممّن يعلمها، أو قد تكون هي من اصطنعتها بمعونة أحد أخوالي من ذوي النفوذ والسلطة والمال، أو بمعونة من أحد أصدقائهم، ذوي الهامات المطأطأة والمناصب العالية،

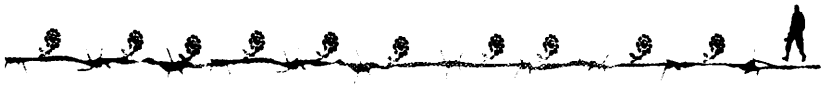

وذلك كي تحول بيني وبين العودة إلى القدس، حتى تمنعني من المضيّ قدمًا في تنفيذ ما كنت عازمة عليه من تحويل مشرط الطبيبة وسكّين الطبخ إلى مقصلة، تقصل رؤوس الصهاينة المحتلين، وتجزّ رقابهم ورقاب من والاهم.

هنا في عمّان وبعيدًا عن القدس.. كنت أشارك في العديد من الفعاليات والمظاهرات المناهضة للصهاينة المحتلّين، وللخانعين الخاضعين من حكّام العرب والمسلمين، الذين يدعمون الصهاينة والأوسلويّين المنحلّين، بل إنّ العديد من هؤلاء الحكّام يعملون على دوام الاحتلال البغيض الذي يدعم بدوره بقاءهم جالسين على مقاعد حكمهم الدكتاتوري البغيض.

بغيض يدعم بغيضاً.. أمّا نحن فنبغض كلا البغيضين...

في الأردن.. كانت الفعاليات والاعتصامات والمظاهرات تقام بجلّها بدعم وتنظيم من قبل جماعة الإخوان المسلمين، تلك الجماعة الربّانية الملاحقة والمضيّق عليها.

فلا خطوط حمراء ولا محرّمات لدى العديد من حكومات الأنظمة العربية في حربهم المعلنة أو المستترة، الباردة أو الملتهبة، ضدّ جماعة الإخوان المسلمين من جهة، وضدّ حركة المقاومة الإسلامية حماس من جهة أخرى، وضدّ ذراعها العسكريّ المسمّاة كتائب الشهيد عزّ الدين القسّام، التي تقف بفضل الله وعونه سدًا منيعًا في وجه المحتلّين الصهاينة هناك في فلسطين.

إنّ جماعة الإخوان المسلمين دفعت وما زالت تدفع ثمنًا باهظًا جدًا بسبب دعمها للقضية الفلسطينية، ودعمها للمقاومة الفلسطينية المتمثّلة بحركة حماس، ورغم ذلك كله لا تزال الجماعة بفضل الله وعونه ثابتة ومتمسّكة بموقفها ومبدئها، لأنّه موقف مستمد من كتاب الله وسنّة رسوله صلوات الله عليه وسلامه.

في تلك المظاهرات التي شاركت بها كنت أردّد مع الجموع الثائرة المنتفضة بصوت عالٍ مدوٍّ:

الله غايتنا.. والرسول قدوتنا.. والقرآن دستورنا.. والجهاد سبيلنا.. والموت في سبيل الله أسمى أمانينا

أردّد وكلّي فهم ووعي لما أنطق به، فأنا ابنة مصاطب العلم التي كانت تقام في باحات المسجد الأقصى، عندما كنت أعيش في المدينة المقدّسة المباركة، وابنة أسر حرائر الأخوان هنا في عمّان، مدينة (الفوضى الخلّاقة)، فوضى حرب الطغاة على بغداد، وفوضى حرب البغاة في دمشق، وفوضى فرعون وهامان وقارون ضدّ الشعب المصري والليبي ووو..

وبالعودة إلى عمّان حيث استطعت أن أقنع جدّتي بعد جهد مضنٍ بأن تحضر معي إحدى جلسات أسر حرائر الإخوان، ومنذ ذلك الحين وهي تواظب على حضور تلك الجلسات وحلقات العلم الشرعي والسياسي والإنساني، بل إنّها استطاعت إقناع بعض خالاتي وبناتهنّ وبنات أخوالي وزوجاتهم بحضور حلقات العلم تلك.

ومنذ ذلك الحين لم تعد جدّتي تعترض على ما كنت أقوم به من المظاهرات والاعتصامات، ولا حتّى تدرُّبي على الملاكمة؛ لأنّها أصبحت تعي جيّدًا أنّ المؤمن القويّ خير من المؤمن الضعيف، ولم تعد تعترض عليّ عندما تراني ألكم صورة ذلك الغبيّ العبثي العبوس؛ لأنّي وبفضل الله استطعت أن أجلّي لها الحقيقة وأزيل عن عينيها الغشاوة موضحةً لها أنّ ذلك الغبيّ العبثيّ صاحب مشروع أوسلو ما هو إلّا غرقديّ عميل، حاله كحال شجر الغرقد الملعون الذي يحتمي خلفه اليهود في آخر الزمان، وذلك عندما يطاردهم المسلمون ليقتصّوا منهم على ما ارتكبوه من جرائم وفواحش، كما بيّن لنا ذلك المصطفى ﷺ في الحديث النبوي الذي رواه الشيخان، حيث قال: «لا تقوم الساعة حتّى يقاتل المسلمون اليهود، حتّى يختبئ اليهود وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم هذا يهوديّ خلفي تعال فاقتله إلّا الغرقد فإنّه من شجر اليهود».

لقد قصصت على جدّتي أمّ عامر كيف أخبرنا المصطفى الصادق الأمين ﷺ بأنّ اليهود يبلغون في آخر زمن من الأزمان الذروة في القوة والسيطرة، وأنّهم سيجتمعون في مكان واحد، ثمّ سيتسلّط عليهم المسلمون ويضعون على رقابهم السيف، وينادي كلّ شيء حتّى الشجر والحجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهوديّ خلفي تعال فاقتله إلّا شجر الغرقد فإنّه من شجر اليهود.

...إلّا بشر الغرقد فإنّهم من صنع اليهود...

وها هم اليهود المجرمون يتجمّعون في فلسطين الجريحة، بعد أن قتلوا أهلها وشرّدوهم في المهاجر والمنافي ومخيّمات اللجوء، وبعد أن عاثوا في الأرض فسادًا وطغيانًا وتجبّرًا وتدنيسًا، فدنّسوا المسجد الأقصى المبارك، وقطعوا الشجر وهدموا الحجر؛ وهذه المعجزة النبوية كما تحقّق أوّلها في سبيل التجمّع اليهودي الذي تدفع به الصهيونية العالمية نحو فلسطين المحتلة، لتملأها باليهود من مختلف أصقاع الأرض، سيتحقّق آخرها بإذن الله تعالى عبر حرب قادمة لا محالة ضدّ هؤلاء اليهود القتلة المجرمين، وسيقود تلك الحرب بعون الله وقدره (مجاهدو الطائفة المنصورة) الذين آمنوا بربّهم وعاهدوه على الجهاد في سبيله، إنّهم من توّجوا عقولهم وقلوبهم بدرر القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وتوّجوا رؤوسهم بعصبة الحقّ التي كتبوا عليها لا إله إلّا الله محمّد رسول الله، فهم أبناء حماس، أبناء الطائفة المنصورة، طائفة كتائب الشهيد عزّالدين القسّام؛ لذلك فالحقّ سينتصر والإسلام سيسود بإذن الله تبارك وتعالى مهما طال الزمن وبعد الطريق، ومهما امتلأت بالعقبات والأشواك والغراقدة الذين يحاربون الله وأولياء الله جهارًا نهارًا خدمة لأسيادهم الصهاينة والصليبيين.

لقد أصبحت جدّتي أم عامر تعي جيدًا أنّي لا أقصد بالغرقد ذلك الشجر الذي ينبت في أرض فلسطين المباركة بعد أن زرعه اليهود المحتلون لعنة الله عليهم ليتغذى على خيرات ترابها ومائها ويتنفّس هواءها، حتّى يحتموا خلفه وبه..

فعجبًا منك يا غرقد كلّ العجب!

لأنّ كلّ الشجر بوادينا تنادينا..

إلّا أنت يا غرقد شجرًا كنت أم بشرًا تعادينا..

وتوالي أعادينا! وتحمي اليهود وتخبّئ اليهود..

وتقتل وتسجن وتعذب مجاهدينا وتحارب الإسلام دينًا

إنّ الغرقد والغراقدة أشخاص من لحم ودم وعظم، أشخاص خانوا شرف الانتماء للإسلام ولهذه الأمّة ولهذه الأرض المباركة، أشخاص بدّلوا جلودهم،

أضاعوا شرفهم وانسلخوا عن وطنهم فلسطين الأرض وفلسطين الدين، فغدوا بفعلهم هذا غرقد البشر الذي يحمي اليهود ويأتمر بأمرهم، لذلك إنّهم أشدّ غدرًا وخيانة من غرقد الشجر.

كم أتوق إلى العودة إلى المسجد الأقصى! وكم أنا بشوق لرؤية شجر القدس الطيّب وحجارته الأصيلة وناسه المخلصين المجاهدين! والله يا جدّتي إنّي أحلم بالقدس ليل نهار، أحلم أنّي أقف بخشوع على قبر صديقتي الشهيدة لأقرأ لها سورة الفاتحة، ولغيرها من شهيدات فلسطين الماجدات الخالدات، وأحلم أنّي أقف على باب دار صديقتي التي أكرمها الله بالحرية والانعتاق من قيد السجان الصهيونيّ المجرم؛ لكي أبارك لها بنصرها وفكّ كربها ولأصطحبها في جولة نبارك بها لكلّ المحرّرات المنتصرات، ولنواسي كلّ أمّهات وبنات وأخوات الشهداء والشهيدات.

بالقدس أحلم وإلى القدس سأعود بعون ربّي المعبود، فلا تفريط بأرض الجدود، ولا خنوع للسلاسل والقيود، ولا للغراقدة والجنود، لا لليهود ولعبيد اليهود، ولا للخمود.

ونعم وألف ألف نعم للشهيد المجيد..

الشهيد الرعد والوعد والعهد..، يا وطن الجدود..

قادمة أنا لأدوس كلّ الحدود واليهود.. وتحالفهم مع الغرقد حليف القرود..

الغرقد الحقود البليد النكيد.. والغرقد البعيد البعيد.. والغرقد الوليد الوليد الجديد!

# للنبل عنوان

«اسمه نبيل، وهو للنبل عنوان، كيف لا وهو من ضحّى بحريته من أجل أن أبقى حرّة طليقة! لا ليس من أجلي بل من أجل مبادئه النبيلة، فاستحقّ بذلك أن يكون للنبل عنوانًا.»

بينما كنت أنا وجدّتي عائدتين من إحدى فعاليات التضامن مع فلسطين، التي غُدرت فغدت (فلسًا) يُنهب، و(طينًا) يُباع من قبل بعض اللصوص من أبنائها، لليهود نقضة العهود، وخونة الوعود، ليبنوا عليها مستوطناتهم الاحتلالية، بمباركة من أوغاد أوسلو، ومن سار بركبهم من طفيليي رؤوس الأموال، فإذا بعابر للطريق يقفز أمام سيّارتي قاطعًا الطريق عليها، فوصلته عبر اصطدامها به بلا حول ولا قوة؛ وذلك لأنّ (جحدر) لم يتمكن من التوقف عندما ضغطت على دوّاسة البنزين المرة تلو المرة، فقاطع الطريق هذا كان أسرع من (جحدر) الذي سبق لجدّتي أن وصفته بأنّه كتلة من الحديد الذي لا يصلح إلّا لمصارعة الثيران، أو مناطحة الجدران.

اصطدمت به فوقع أرضًا مصطنعًا فقدانه الوعي، وهذا ما اكتشفته فور نزولي من السيارة لتقديم الإسعاف الأوّلي له، فحقيقة الأمر أنّه هو من قام بالاصطدام بـ (جحدر)، فعيناه اللتان قمت بفحصهما دلّتا على ذلك بشكل جليّ، بل إنّهما دلّتا على أنّه من النوع الخبيث والمخادع.

وبينما كنت منهمكة مع جدّتي في محاولة إيقاظه، فإذا بشابّ نبيل يتحدّث إليّ بصيغة الأمر طالبًا منّي التنحّي جانبًا، فتنحّيت، وقام بحمل المصاب بين ذراعيه ثمّ وضع في سيّارته، وانطلق مسرعًا إلى أحد المشافي القريبة من مكان الحادث، فانطلقت في إثره، وما إن وصلت إلى المشفى حتى كان أطبّاء قسم الطوارئ يقومون بواجبهم مع المصاب، أمّا شرطي قسم الحوادث بالمشفى فكان يقوم هو الآخر بواجبه عبر احتجازه لذلك النبيل الذي كان قد أقرّ بأنّه هو من تسبّب بالحادث،

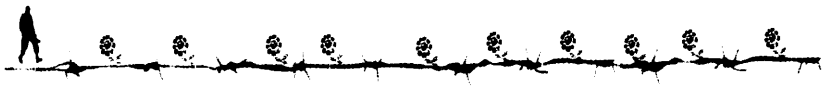

حاولت جاهدة ثنيه عمّا فعله لكنّه رفض ذلك بشكل قاطع، وأصرّ على مغادرتي للمشفى، طالبًا منّي الاتصال بأخته بيسان، فطلبت منه رقم هاتفها، فإذا به يبتسم قائلًا: أنسيت أنّه بحوزتك؟! أم نسيت أنّكما لا تتوقّفان عن الحديث مع بعضكما البعض إلّا عندما تدخلان لقاعة المحاضرات الهادئة، أو ساحة المظاهرات الهادرة، أم أنّك أصبت بفقدان ذاكرة نتيجة للحادث؟!

ألست ملاك القدس، وملاك الرحمة، وملاك الثأر والشهادة، أليست تلك الألقاب التي تستعملينها على مواقع التواصل الاجتماعي؟!

تحدّثت مع بيسان صديقتي في الجامعة، وأختي في أسر حرائر الإخوان، وشريكتي في التظاهرات والاعتصامات، أخبرتها بما حدث، فأجابتني وكعادتها بكلّ برود أعصاب، وقالت: طيب، أوصلي جدّتك أم عامر لمنزلها، ثمّ تعالي لمنزل أهلي فأنا بانتظارك هناك، ولا تنسي أن تحضري بعض السندويشات والعصائر فأنا جائعة جدًا، وإيّاك أن تخبري والدتي بما حدث، فنبيل دلّوع الماما، وأمّي إذا علمت بما حدث سوف تقوم بتسليمك للشرطة ليتمّ احتجازك مكان مدلّلها نبيل.

أثناء انشغالي بالتحدث مع بيسان كانت جدّتي (الكهنونة) قد قامت بالاتّصال بخالي عامر، وطلبت منه إحضار محامٍ لنبيل بعد أن أخبرته بكلّ ما حدث بالتفصيل الممل، وهذا ما حدث، فقد حضر خالي على عجل، مصطحبًا المحامي للمشفى لمحاولة حلّ الإشكالية وتسوية الأمور، لكنّهما وجدا أنّ نبيل تمّ نقله إلى مركز الأمن المجاور للمشفى، وهو الإجراء المتّبع في مثل تلك الحالات، حيث يتمّ حجز المتسبّب بحادث سير الطرق ما دام هناك مصاب يحتاج البقاء في المشفى من أجل تلقّي العلاج لمدّة تزيد عن واحد وعشرين يومًا، وبما أنّ المشفى كان مشفى خاصًا فلم يجد أطباؤه ما يدفعهم لصرف مصاب يدّعي عدم الاتّزان عند الوقوف، وعدم الرؤية بشكل واضح عند النظر إلى الأشياء، وعدم التمكّن من السماع بشكل جيّد بسبب طنين يصمّ أذنيه، بالرغم من أنّ هذا المريض لم يكن مصابًا إلّا ببعض الخدوش البسيطة، وبألم في يده،

أظهرت صور الأشعة أنّه لا يعدو كونه التواءًا بسيطًا، لا يوجب وضع جبيرة من الجبس عليه، بل اكتفى طبيب قسم العظام بوضع ضمادة على موضع الألم في تلك اليد وتطهير الخدوش السطحية البسيطة.

حصل المحامي على التقرير الطبّي الذي يفيد بأنّه قد يكون هناك احتمال إصابة الرجل بارتجاج في الدماغ، نتيجة الحادث الذي تعرّض له، ممّا يوجب بقاءه في المشفى تحت المراقبة الطبية الحثيثة من جهة، وإخضاعه للمزيد من الفحوصات الطبية والصور الشعاعية للدماغ من جهة أخرى.

لذلك لم يتمكّن المحامي من إطلاق سراح نبيل من مكان احتجازه في المركز الأمني ذلك اليوم، ولولا أنّ خالي عامرًا تمكّن من إحضار جرعة كبيرة من فيتامين واو، ما تمّ إطلاق سراح نبيل بعد أربعة أيّام مرّت على احتجازه، فالأردن حاله كحال سائر الدول العربية، الإشكاليات تحلّ به من خلال جرعة أكبر وأشدّ تأثيرًا من فيتامين واو؛ لذلك كانت الواو التي استعان بها خالي، واوًا كبيرة جدًا، وكان صاحبها كالعادة من أصحاب الهامات المطأطأة والمناصب العالية الرفيعة؛ هامته كانت مطأطأة لأنّ لصاحب الواو ثمنًا يدفعه من هو بحاجة لها، وما إن يتمّ دفع الثمن حتى نجد صاحب الواو وقد طأطأ رأسه بعد أن مدّ يده، مدّ النبيل نبيل يده ففكّت القيود، بعد أن مدّ المطأطأة رأسه يده ليقبض الثمن الموعود.

خلال الأيام الأربعة التي سبقت إطلاق سراح نبيل، حرصت على الحضور مع جدّتي وبيسان إلى المركز الأمني من أجل تزويده بالملابس والطعام، ولذلك تمّ الاستعانة بواو صغيرة بقدر صغر الخدمة التي قدّمتها.

وفي تلك الأثناء أيضًا قمت بسؤال بيسان عن سبب إطلاقها لقب دلّوع الماما على ذلك النبيل نبيل، فأجابت والضحكة تملأ وجهها وقالت: أنسيت أنّ أخي نبيلًا وحيد أمّه، وأنّ باقي أخوته هنّ من البنات؟! وهذا حتمًا يوجب إطلاق ذلك اللّقب عليه، بغضّ النظر عن صحّته وصدقه، اعلمي يا ملاك أنّ أخي نبيل ذو شخصية لا تمتّ لذلك اللقب بأيّة صلة، فالعكس هو الصحيح؛

فنبيل هو من يقوم بتدليلنا وتدليعنا أنا وأخواتي وأمي أيضًا وكأنّها أخت له وليست أمّه، فنبيل أخي مهندس قويّ الشخصية، عالي الهمّة، عصاميّ النشأة، مستقلّ القرار، ومتديّن بالفطرة.

حاولت جاهدة أن ألتقي بنبيل بعد أن تمّ إطلاق سراحه لكي أقدّم له الشكر على نبل أخلاقه وشهامته التي أصبحت عملة نادرة في هذا الزمان، لكنّه لم يُتِح لي الفرصة للالتقاء به، وعندما بحثت عن السبب وراء ذلك، كشفت لي بيسان سرّ ذلك التمنّع، بل سرّ غضب الحليم نبيل، حيث قالت أنّ نبيلًا غاضب جدًا جدًا؛ لأنّ خروجه من الحجز تمّ بسبب الواسطة التي استعان بها خالي، وليس لأنّ المصاب النصّاب قد تعافى من إصابته الزائفة.

وهنا وجدت نفسي واقعة بين نارين، نار نبل نبيل الزائد، نبل نبيل الذي لم يُتِح لي الفرصة لقول شكرًا أو عذرًا، ونار خُبث ذلك المصاب النصّاب، الذي يسعى لابتزاز نبيل من خلال طلبه لتعويضات لا يستحقّها، وهدّد أنّه في حال عدم دفع تلك التعويضات، سيكون هناك ما لا يحمد عقباه في انتظار نبيل، الذي تمسّك بموقفه المبدئي الرافض للخضوع للابتزاز.

فما كان منّي سوى أن قمت بتنحية نبيل جانبًا كما سبق له فعل ذلك معي عندما نحّاني جانبًا وحمل المصاب النصاب، وحمل عبء القضية والسجن على عاتقه، وذلك عبر توجّهي وبشكل مباشر إلى مدير المركز الأمني الذي استمع إليَّ بكلّ آذان صاغية، عندما قمت بشرح ملابسات الحادث له، فما كان منه بعد انتهائي من التحدّث إلّا أن قام باستدعاء أحد الضباط، وطلب منه فور دخوله إلى المكتب أن يقوم بوضع القيد في يديّ ثمّ زجّي في زنزانة التوقيف.

اقترب الضابط لتنفيذ أمر قائده، فمددت يداي وأنا أشعر براحة الضمير، وإذا بمدير المركز الأمني يطلق ضحكة ضجّ بها مكتبه، ففهم الضابط أنّ الأمر لا يعدو كونه مزحة من مديره الذي أردف ضحكته بأن طلب من الضابط إحضار ملف حادث الدهس الذي تسبب به نبيل،

وكلّفه بعد اطّلاعه على الملف بأن يقوم بإرسال بعض عناصر الأمن إلى المشفى لكي يقوموا بمراقبة المصاب بشكل لصيق، وذلك لأنّ هناك احتمالاً كبيراً بأنّ المصاب ليس سوى نصاب ومبتزّ، وهذا ما حدث، حيث أنّ المراقبة أثبتت صحّة ادّعائي الذي تمّ تأكيده أيضًا عبر السجل الجنائي للمصاب النصّاب، حيث أظهر سجلّه الأمنيّ قيامه بالعديد من عمليات ومحاولات النصب والابتزاز فيما مضى، ويبدو أنّه قرّر العودة من جديد إلى ماضيه القديم الجديد، وعندها أمر مدير المركز الأمني بإلقاء القبض على المصاب النصّاب في المشفى حيث كان يقيم وكأنّه في فندق خمس نجوم، وتمّ اقتياده مكبّلًا إلى المركز الأمني من أجل التحقيق معه بتهمة الابتزاز الذي اتهمته به؛ وذلك في استجابة منّي لطلب مدير المركز الأمنيّ، حيث أراد من وراء ذلك تلقين ذلك النصّاب درسًا من خلال الزجّ به في السجن، وجعله يدفع كافة تكاليف علاجه الزائف للمشفى الخاصّ، أي أن يقع بالحفرة التي حفرها بعد أن انقلب السحر على الساحر.

وقد أسدل الستار على تلك القضية تمامًا عندما قام مدير المركز الأمني باستدعاء نبيل ليبلغه بإغلاق ملفّ القضية التي كانت مقدّمة بحقّه، وليخبره بأنّه لم يعد طرفًا من أطراف الحادث، ذلك بعد أن كشف له المدير ما قمت به أنا من اعتراف وغير ذلك؛ وعندها شعر نبيل بتأنيب الضمير، فحاول التواصل معي من خلال بيسان أخته باردة الأعصاب، التي أخبرته بعدم رغبتي بالتحدث معه بالموضوع، وقالت له: واحدة بواحدة، أنقَذتَها فأنقَذتْكَ، تجاهَلتَها فتجاهَلَتْكَ.

في الحقيقة لم يكن ما ذكرته بيسان عن سبب عدم رغبتي في مقابلة نبيل دقيقًا، فأنا ببساطة لم أرغب بلقائه حتّى أوفّر عليه وعليّ حرج الاعتذار والشكر، فنبيل يبقى عندي للنبل عنوان، وسأبقى مدينة له ما بقيت.

وبعد مضيّ عدّة أشهر على إسدال الستار على حكاية الشكر والاعتذار وجهًا لوجه، فتح الستار مجدّدًا على صفحات المواقع الإلكترونية، وذلك حين كتبت على موقعي المسمى (ملاك الرحمة) تعليقًا فدار حوله الحوار الآتي:

كم هو جميل عالم الفرسان، حين لا ثمن للنبل المقدّم سوى الشكر والعرفان، فشكرًا لمن كان للنبل عنوانًا، شكرًا لنبيل الأخ والإنسان.

فكتب نبيل معلقًا تحت اسم مستعار:

لا ينتظر النبيل شكرًا ولا عرفانًا، فيكفيه أن يكون أخًا وإنسانًا

من لا يشكر الناس لا يشكر الله

إذن شكرًا لملاك الرحمة التي فاق نبلها نبل ذلك النبيل

بل شكرًا لنبل نبيل، فلولا نبله ما استحققت الشكر، شكرًا للملاك الحارس، الذي حرص على حراسة وحماية ملاك الرحمة

شكرًا وعذرًا لكِ

عذرًا وشكرًا لكَ

بتلك الكلمات أُسدِلَ الستار على حكاية الشكر والاعتذار، وحكاية النبل الصادق، نبل الفرسان، ونبل الإنسان الإنسان.

# عرس الشهيد

«للشهيد عرسان، عرس الأرض وعرس السماء، ذلك أنّ الشهيد أرضيّ سماويّ، إنسانيّ ربانيّ، حاله ليس كحالنا نحن، أهل الأرض.. ودود الأرض.. وجراد الأرض.. وجحيم الأرض؛ فحال الشهيد كحال ساكني جنّة السماء من أنبياء ورسل وصالحين، فهل لنا من طريق إلى جنّة نعيم السماء؟!»

على امتداد الأعوام التي تلت والدتي عبر زغاريدها عند انطلاق رحلة دراستي للطبّ، تقدّم لخطبتي العديد من العرسان، وقد تكفّلت والدتي وجدّتي بردّهم جميعًا على أعقابهم خاليي الوفاض، وكان العذر الوحيد لردّ هؤلاء العرسان أنّ الدكتورة ملاك لن تتزوّج قبل أن تكمل دراستها وتصبح دكتورة.

وها أنا أشارف على إنهاء عامي الدراسي الأخير، والذي من المؤكّد أنّي سأنهيه بتفوّق كما الأعوام التي سبقته، وذلك سيتيح لي التخرج من كلية الطبّ بامتياز مع مرتبة الشرف، سأتخرّج بلا حبيب ولا خطيب ولا عريس، وسأتخرّج تاركة الضفادع في المختبر بلا تشريح.

في حقيقة الأمر كنت أنا من ترفض الارتباط بأيّ أحد قبل أن أنهي دراستي الجامعية، وهذا ما كانت جدّتي ووالدتي تعيانه جيدًا، وتعيان أيضًا مدى ارتباطي بالمشاركة الفاعلة بالفعاليات التضامنية والداعمة لانتفاضة حرائر الأقصى، انتفاضة أحجار التظاهر، وسكاكين الطعن، وسيّارات الدهس.

لقد تداعت أحداث هذه الانتفاضة بشكل كبير، فلا يكاد يمرّ يوم إلّا ويستشهد حرٌّ أو حرّةٌ من حرائر فلسطين، فتلك الفتاة أغمدت سكّينها أو خنجرها في صدر صهيونيّ أو برقبته، وهذا الشابّ داس تحت عجلات سيّارته مجموعة من الجنود، وهؤلاء ألقوا الحجارة والزجاجات الحارقة نحو المحتلّ وجيشه، فاستشهدت تلك وهذا وهؤلاء.

لكن لم تشيّع جثامينهم إلى مثواها الأخير، ولم تقم لهم أعراس، فلا مواكب تُشيّع، ولا أعراس للشهداء، وذلك لأنّ الصهاينة القتلة المجرمين المحتلين يرفضون تسليم جثامين الشهداء لذويهم، ويصرّون على دفن بعضهم في مدافن الأرقام، والبعض الآخر يدفنه الصهاينة في مدافن ثلّاجات الموتى، حيث تنهب من جثامينهم الأعضاء!

كان ذوو الشهداء يتألّمون لعدم تمكّنهم من توديع أبنائهم، وإلقاء النظرة الأخيرة عليهم قبل مواراتهم الثرى، وكنت أتألّم لألمهم، فيَصِل هذا الألم لجدّتي أمّ عامر، التي كانت تعلم علم اليقين أنّ ألمي لا يقتصر على ألم الضحية، بل يمتدّ إلى عدم القدرة على الردّ الموجع على المحتلّ المجرم القاتل، من أجل معاقبته على الجرائم التي اقترفها ولا يزال ضدّ الشعب الفلسطيني، وضدّ الشجر والحجر والأرض الفلسطينية.

لذلك بدأت جدّتي وكاتمة أسراري تردّد على مسمعي جملًا جديدة ما عهدتها منها قطّ؛ فقد قالت لي بعد يوم دامٍ راح ضحيّته العديد من الأطفال الشهداء على يد مجموعة من المستوطنين المجرمين ومن جنود قوّاتهم الاحتلالية القاتلة: «كيف لمن تحبّ فلسطين كلّ هذا الحبّ أن تدرس الطبّ لا الهندسة؟! وكيف لها أن تسمح للشبان أن يحتكروا هندسة العمليات الجهادية؟! وأن تقبل أن يقتصر دورها على مداواة جراح هذا، والهتاف عند استشهاد هذا؟! غبية أنت يا ملاك الشافي، لأنكِ لم تصبحي عزرائيل مقاومًا، عزرائيل يقبض أرواح الصهاينة القتلة المجرمين عبر عمليّاته الجهادية! كوني مفجِّرة ولا تكوني مداوية!»

كان لتلك الكلمات والجمل التي تردّدها جدّتي والتي أصبحت محرضة ومنظّرة للمقاومة والجهاد وقعًا عظيم الأثر في نفسي، تلك النفس التي أيقنت أنّ لها مهمة أخرى تؤدّيها في الحياة غير الطبّ والكتابة والتظاهر والاعتصام والاحتجاج، إنّها المهمّة المقدّسة، مهمّة الهندسة المقاومة، الهندسة صانعة العبوات والأحزمة الناسفة، ومهندسة العمليات الجهادية والاستشهادية.

نعم تلك هي مهمّتي، خاصةً وأنّ الضفّة الغربية قد خلت وبشكل شبه كامل من المهندسين المجاهدين السائرين على درب يحيى عيّاش، مهندس فلسطين الأوّل، ومفجّر العمليّات الاستشهادية، عيّاش مهندس القسّام الذي أوجع الصهاينة، وأذاقهم الويلات في عمليّاته الجهادية المرة تلو المرة؛ فقد أصبح مهندسو فلسطين وخرّيجو جامعاتها بجلّهم من العاملين في طاحونة بناء المجتمع الفلسطيني الاستهلاكي الخانع والخاضع لسلطة الاحتلال الصهيوني، وسلطة الانحلال الأوسلويّ المخادع، فغدا هذا المهندس المتأنّق يبني بناية تناطح السحاب لأحد لصوص أوسلو، وذلك يبني مدينة سكنية على إحدى روابي جبال فلسطين لصالح مجموعة من المستثمرين الطالحين واللصوص الناهبين، ومهندس آخر تخصّص في صيانة المركبات التي غزت شوارع فلسطين بشكل جنوني، بعد أن أصبح الحصول على أغلى تلك المركبات أمرًا سهلًا وميسّرًا، عبر طاحونة القروض الربويّة التي قتلت البركة بين رحى حجريها، وأحلّت محلّها اللعنة على مال المرابي والمقترض، ومال الراشي والمرتشي، نعم، وربّ الكعبة لقد خلت فلسطين بمدنها وقراها من المهندسين المقاومين تمامًا، وأصبحت تغصّ بالمهندسين المتخاذلين، مهندسي فقاعة سحاب البناء الواهم، ومهندسي الاستهلاك، أين هؤلاء المهندسون من سيّدهم المهندس يحيى عيّاش، أين هم؟! وأين الطريق التي رصفها لتكون دربًا يسير عليها مهندسو المقاومة والعزّة؟! بل أين الطريق والدرب؟! وأين المهندسون المقاومون؟! أين؟! هل تمكّنت سلطة الاحتلال من القضاء على درب المهندس وطريقه؟! أم أنّ سلطة الانحلال وأجهزتها الأمنية هي من دمّرت طريق العيّاش عبر ملاحقتها لكلّ ما يمتّ للمقاومة بصلة؟!

تلك الأسئلة وغيرها كانت تدور في رأسي، رأس ملاك الطبيبة التي باتت على أعتاب بوّابة التخرّج من كلية الطبّ، تلك الأسئلة كانت تؤرّقني، تؤلمني بل تقتلني، فكيف للطبيبة ملاك أن تداوي الطفل الشهيد (محمّد أبو خضير)،

الذي أحرقه الصهاينة وهو حيّ حتّى الموت على إحدى تلال مدينة القدس المحتلّة؟! وأن تشفي جراح عائلة (دوابشه) التي أُحرق أفرادها من أمّ وأب وأطفال وهم نيام من قبل المستوطنين المجرمين حتّى الموت، فتحوّلت أجسادهم إلى رماد متناثر؟! كيف لملاك الطبيبة أن تداوي رماد الشهداء الأبرار؟! بل كيف لها أن تجمع رمادهم المتناثر بفعل بركان الكره اليهوديّ وعواصف الإجرام الصهيونيّ ورياح الخيانة والغدر الأوسلويّ؟! كيف للطفلة التي أصبحت طبيبة أن تتحوّل إلى مقاتلة مقاومة مجاهدة مهندسة مفجِّرة مدمِّرة؟! وكيف لها أن تحمل على عاتقها قسم إعادة إعمار طريق العيّاش الذي دمّره المحتلّ والمنحلّ؟! وكيف لها أن توقف عملها العلني في الطبّ لتحوّله لعمل سرّيّ في الهندسة؟

لم يكن أمامي للتحوّل من طبيبة إلى مهندسة سوى ذلك النبيل (نبيل المهندس) نبيل الأخ والإنسان، نبيل الذي أحبّ فلسطين رغم أنّ قدميه لم تطأ ترابها، ويديه لم تكبّل بقيد محتلّها، وأمواله لم تنهب على يد منحلّها، نبيل النبيل الذي يكره المحتلّ والمنحلّ، الذي يكره الصهيونيّ كما يكره الأسلويّ، علّمني كيف أحمل البندقية؟ وكيف أصوّب منها الرصاص نحو أعداء فلسطين، أخطّط أعدّ وأستعدّ، فأنفّذ وأضرب الضربة تلو الضربة، فأعاود التخطيط والإعداد والاستعداد، لأنفّذ الضربة الأقوى فالأقوى.

هذا ما أريد أن أكون عليه من حال، أريد أن أصبح مهندسة للعمليات الجهادية لا طبيبة للعمليّات الجراحية.

لا، وألف لا، لا أريد وقف الدم الدافق من جرح الشعب الفلسطيني، لا، لا، بل أريد أن أجعل الصهاينة المحتلّين والمستوطنين والمنحلّين يجرحون وينزفون دمًا نتنًا عفنًا لعلّهم يموتون ألمًا، أو يموتون حرقًا، فبموت الصهاينة وحرقهم سيحيا شعبي، وسيلتئم جرحه بشكل فوريّ.

فما دام هناك احتلال وانحلال، سيبقى هناك دم فلسطينيّ نازف، ورماد فلسطينيّ متناثر متطاير، نبيل النبيل علّمني كيف أصنع الترياق الشافي،

علّمني كيفية تنفيذ العمليّات الجهادية التي ستؤدّي إلى تناثر أشلاء الصهاينة، وتبعثر رمادهم الأسود الخانق.

لا أريد وقف قطر الدم الفلسطيني، بل أريد تفجير شرايين دم الحقد والكره الصهيوني المجرم، نبيل المهندس إيّاك ثمّ إيّاك أن تختلق الأعذار، فلا أعذار لك عندي، ولا تنصّل ولا تهرّب ولا حجج، فغير جملة: «نعم، موافق وعلى الله سنتوكّل، وننطلق في إعادة رصف طريق العيّاش يحيى، لا أريد أن أسمع أو أفهم!»

صمت نبيل برهة ثمّ أجاب: «إنّ قصّة المهندس معروفة ومحفوظة بمداد الحبّ في قلوب معاصريه، واسمه تردّد بشكل دائم في كلّ منتدى وبيت، وعلى كلّ شفة ولسان من المغرب وحتى اليمن، وذكره مئات الملايين من العرب والمسلمين عندما أظلمت الدنيا واشتدّت الأزمات، وفاضت على وجوههم مظاهر الألم والقهر والإحباط.

لقد عرف يحيى عيّاش موطن ضعف عدوّه، ومكمن قوّة شعبه، فاستغلّ معرفته لإعادة جزء من التوازن المفقود للقوى بين شعبه الأعزل، وعدوّه المدجّج بالسلاح، عن طريق نقل الصراع من ساحة المادة الضيّقة إلى ميدان المعنويّات الأرحب، فأصبح الصراع بين عدوّ مكبّل بالخوف من الموت، وشعب يعشق التضحية في سبيل حريته.

ولأنّ للبطولة طعمًا آخر في اللحظات الحاسمة، فإنّ يحيى عيّاش يكاد يتفرّد بين أبطال الشعب الفلسطيني، فقد جاء في ذروة الانهيار ليعلن أنّ الشعب الذي تُحضّر القبور لدفن قضيته ما زال مفعمًا بالحياة، وأنّ مقولات اليأس الرسمية، ليست أكثر من رماد يواري الجمر المتّقد في صفوف الشعب.

في عمره القصير صنع المهندس الكثير، فقد أدرك منذ البداية أنّه يسابق الزمن حين قرّر العمل على نسف جدار الأمن الشاهق الذي أقامه الصهاينة مستغلّين ترسانتهم العسكرية، وخبراتهم المتراكمة في مواجهة شعب أعزل محاصر، فكان مبادرًا حيث لا فائض من الوقت لدى شعب يحيا واحدة من أكثر مراحل تاريخه المعاصر حرجًا.

وعاش لشعبه ومن أجله رحل، في وقت يتصارع المهزومون على فتات يظنّون أنّها مغانم حرب وضعت أوزارها.

إنّ شخصية المهندس المتميّزة في عطائها وقدرتها على المبادرة والتجديد تستحقّ أن نقف عندها وقفة متأمّلة فاحصة، نستطلع حياته ومكامن العظمة في شخصيّته، ونقيّم تجربته الرائدة، ونستخلص العبر من مسيرة عطائه الحافلة بالتضحيات في سبيل الرسالة التي آمن بها، ونذر نفسه وحياته لتحقيقها.

ولأنّ المهندس يحيى عيّاش شاب قرويّ بسيط، كان من الممكن أن يكون كغيره من الآلاف الذين يحملون الشهادة الجامعية، مهندسًا عاديًا يعمل في إحدى الشركات أو الورش، ويتقاضى راتبًا مرتفعًا في إحدى الدول، أو يعيش في أفخم وأرقى الأحياء والمدن، إلّا أنّ بطلنا المهندس تغاضى عن كلّ هذا وقفز فوق كلّ الحواجز، وتمسّك بإسلامه وقضيّته، فكانت المقاومة والجهاد حبّه الكبير الذي أعطاه عصارة أفكاره وعاطفته، مجسّدًا فيه القدوة الحسنة للتضحية والعطاء.

ولعلّنا لا نكون مبالغين إذا قلنا أنّ مشكلة سلطات الاحتلال الصهيونيّ المجرم مع المهندس شكّلت أعقد المشاكل الأمنية التي واجهتها المؤسسة العسكرية والأمنية الإسرائيلية منذ قيام الدولة العبرية على أرض فلسطين؛ فالرجل الأسطورة قد سنّ سنّة غريبة عند بني صهيون تتمثّل في العمليّات الاستشهادية، والتي يستحيل مقاومتها حسب ما قال رئيس وزراء الكيان الصهيوني آنذاك (رابين).

فقد برع وأبدع المهندس بتصنيع المتفجّرات من أدوات وموادّ متاحة، ممّا أوجد مشكلة كبيرة لدى أجهزة الاحتلال في تتبّع مصادر الأسلحة، كما أنّ عيّاشًا ابتكر نموذج حقائب المتفجّرات، والقنابل البشرية (تفخيخ الاستشهاديّين) وهي مشكلة أعقد من السيّارات المفخّخة، وكأنّ المهندس أراد أن ينقل رسالة اعتبارية قبل أن يفوز بلذّة النظر إلى وجه ربّه الكريم، وهي أنّ رجلًا واحدًا مخلصًا لهدفه ومعتقداته يستطيع أن يمرّغ غطرسة الكيان الصهيوني في التراب، ويرعب قياداته وجنوده، ويجعلهم يحفظون صورته ويعلّقونها في مكاتبهم،

ويحملونها في دورياتهم، وينسجون حولها الأساطير الغريبة.

إن ترجّل المهندس وارتاح من عناء الملاحقة والمطاردة، فإنّ الأسطورة لم تنته، وإنّما ترسّخت فالمهندس الذس استشهد في انفجار دبّرته أجهزة الإرهاب، ورحل بعد سنوات من الحرب بكلّ المقاييس بينه وبين جيش وأجهزة الأمن الصهيونية في كلّ مكان، خطّ لجميع المجاهدين في فلسطين دربًا لن يزول.

نعم.. وربّ الكعبة، إنّ المهندس قد خطّ دربًا وطريقًا لن يزول بإذن الله تعالى وتبارك؛ فقد أمضى يحيى عيّاش العام الأخير من حياته في تدريب وإعداد عشرات الخلفاء له، وقد كان المهندس دائمًا يردّد: «إنّ بإمكان اليهود اقتلاع جسدي من فلسطين، غير أنّي أريد أن أزرع في الشعب شيئًا لا يستطيعون اقتلاعه».

ملاك الطبيبة.. هذا بعض ما كُتب عن سيرة المهندس في (كتاب المهندس) لذلك اعلمي أنّ درب المهندس باقٍ ما بقي الاحتلال، وأنّ هذا الدرب لن يتمكّن أحد من دثره أو اقتلاعه فهو متجذّر في أرض فلسطين تجذّر جبالها الراسخة.

دكتورة ملاك.. يجب أن تدركي أنّ كوني مهندسًا لا يعني حكمًا أنّني قادر على القيام بما قام به المهندس عياش وتلامذته من عمليّات تصنيع وتفجير وتخطيط وتدريب وتنفيذ، فأنا مجرّد إنسان عاديّ، يحمل لقب مهندس برمجيّات حاسوب لا أكثر ولا أقلّ، حالي كحال طبيب العظام لا يمكن له بأي حال من الأحوال أن يجري عملية جراحية لاستئصال ورم سرطاني من دماغ إنسان مريض، فذاك تخصّص غير تخصّصه، فكما أنّ هناك طبيبًا نفسيًا وطبيبًا عامًا وطبيبًا لجبر كسور العظام وطبيبًا جرّاحًا لأورام الدماغ وشرايين القلب، هناك مهندس اسمه العيّاش يحيى، الذي أتقن وبتفرّد فنون الفيزياء والكيمياء والكهرباء، وخبر أسرار الدوائر الإلكترونية والمتفجّرات وخفاياها، وهناك مهندس آخر لا يتقن سوى فنّ واحد وهو فنّ الحاسوب وأسراره.

أختي ملاك.. لقد أخطأت العنوان عندما توجّهت إليّ، وأخطأت الهدف عندما قرّرت تغيير الطريق الذي اقتربت من نهايته، وهو طريق الطبيبة،

عودي إلى الطبّ والقدس والأقصى، عودي إلى فلسطين حتّى تداوي الجراح هناك، فهي جراح كثيرة ومتعدّدة ومتنوّعة، عودي واعلمي أن لا دواء لكِ عندي، عند مهندس الحاسوب.»

بعد أن أنهى نبيل الغاضب كلامه القاسي والصريح والمباشر، ترك المكان مودّعًا، فبقيت أنا وبيسان صامتتين لبعض الوقت، ثمّ غادرت أنا الأخرى المكان أجرّ أذيال الخيبة والانكسار، وأذيال جرح مليء ببارود النار.

مرّت الأيّام بعد ذلك اللقاء ثقيلة الظلّ، ثقيلة الوقت والأنفاس، فبعد أن قرأت كتاب المهندس، أدركت كم كنت ساذجة وغبية عندما اعتقدت واهمة أنّني قادرة على السير على درب المهندس، وكم تماديت عندما ادّعيت أنّني سوف أعيد رصف الطريق الذي تسعى سلطات الاحتلال والانحلال بكلّ ما آتاهم الشيطان من قوة غدر ومكر وبطش لإزالة معالمه، بعد أن قامتا مجتمعتين ويدًا بيد بقتل وأسر وتعذيب كلّ من سار على ذلك الدرب، أو من فكّر مجرّد تفكير بأن يسير عليه.

عاودت الانخراط مرّة أخرى بالنشاطات التي كنت أقوم بها سابقًا، مثل التظاهر والاعتصام والكتابة في المواقع الإلكترونية، إلّا أنّني كنت أقوم بكل ذلك ببرود وفتور وكأنّه واجب ثقيل، واجب لا أستطيع الفطام عنه، فالفطام عن المألوف صعب ومستحيل.

وكذلك كانت الحال مع امتحاناتي الجامعية التي اجتزتها وكأنّها حمل ثقيل أزيحه عن عاتقي، وها أنا أنتظر وبفارغ الصبر حلول موعد حفل تخرّج طلبة كليّة الطبّ، ليعلن فيه وعلى الملأ نجاح الدكتورة ملاك بأن تصبح دكتورة، بعد أن فشلت بأن تصبح مهندسة، وقد حضرت والدتي ووالدي إلى عمّان من أجل حضور حفل التخرّج ثمّ العودة بي إلى القدس، وفي هذه المرحلة ازداد بشكل كبير وغبيّ عدد العرسان الذين تقدّموا لخطبتي من والدي ووالدتي وحتّى من جدّتي، وكان ردّهم هذه المرّة أنّ ملاك تريد العودة إلى القدس لتحيا هناك،

وتعمل هناك وتتزوّج من هناك، تلك رغبتها وهذا طلبها بعد أن أنهت دراستها في عمّان التي ما عادت قادرة على العيش فيها أكثر ممّا عاشت.

وسط ضجيج الأيّام المتسارعة وبلاهة صمتي المثير للريبة كما قالت والدتي وجدّتي، ضربتنا الصاعقة عندما كنّا نشاهد على شاشة التلفاز صورة حيّة ومباشرة من مدينة القدس، حيث كان أخي مالك يقوم بتغطية إحدى فعاليّات انتفاضة حرائر القدس، بحكم عمله صحفيًا ومراسلًا لقناة الأقصى الفضائية، فبتلك الصورة تحوّل أخي مالك من ناقل للخبر والمشهد إلى خبر ومشهد، حيث اخترقت رصاصة غدر وحقد من قنّاص صهيونيّ مجرم رأسه وأردته على الأرض مضرّجًا بدمائه، لم تصدّق أعيننا ولا قلوبنا ما شاهدت، ولم تستوعب آذاننا ولا عقولنا ما سمعت! هل إصابة أخي بسيطة؟ أم أنّ جراحه بالغة الخطورة وقاتلة؟ هل هو على قيد الحياة؟ أم أنّه في حالة موت سريريّ؟ لا، لا، قالوا إنّه على سرير التعافي والشفاء، وقالوا أنّه قد استشهد، فهل سنزفّه كما يزفّ الشهداء في أعراس الشهداء؟ وهل سأتمكّن من اجتياز الحدود من أجل حضور عرس أخي الشهيد؟ بل السؤال هو: هل سيقوم القتلة بإلقاء جثمان أخي في مقبرة الأرقام التي يلقي بها المحتلون الغزاة جثث الشهداء؟ أم أنّهم سيلقون به في ثلّاجة المشرحة لينهبوا من جسده كلّ ما يمكنهم نهبه من أعضاء؟

ما بين الأفكار والأخبار كنت أتقلّب أنا ووالدتي وجدّتي على نار أحرّ من الجمر، لذلك وفور انقطاع البثّ الفضائي بعد بثّ مشهد للجنود الصهاينة وهم يجرّون جسد أو جثمان أخي مالك، قرّرت والدتي وجدّتي وأنا معهنّ مغادرة عمّان فورًا والعودة إلى القدس، حيث سنجد الخبر اليقين، ونشاهد الجسد المصاب أو الجثّة المسجّاة.

قدت سيّارتي مسرعةً بعد أن ركبتا معي، دون أن ننتظر وصول والدي الذي كان خارج المنزل في تلك الأثناء، فلم تكن أيٌّ منّا قادرة على الانتظار أكثر وسط لهيب جمر الأفكار والأخبار، وما هي إلّا ساعة واحدة حتّى كنّا قد وصلنا إلى الجسر الحدودي،

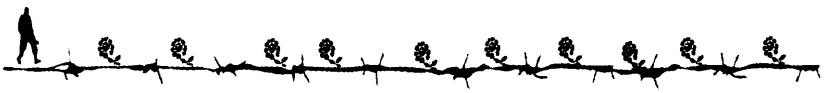

الفاصل بين الأردن وفلسطين المحتلّة، سمح لي الأردنيّون هذه المرّة بمغادرة المملكة بعد أعوام طويلة من المنع والتعطيل، لم أشغل بالي بمعرفة السبب، بل واصلت الرحلة بعد أن تركت سيّارتي الأردنية على الحدود، فركبت مع والدتي وجدّتي بحافلة لنقل المسافرين؛ ذلك أنّ الدخول إلى الأراضي الفلسطينية المحتلّة بسيّارة أردنية يتطلّب الكثير من الإجراءات التي تمتدّ في العادة إلى عدّة أيّام ونحن في هذه الحالة، لانملك أيامًا وساعات ولا حتّى دقائق! أثناء تلك الدقائق التي احتاجتها الحافلة لاجتياز الفاصل انتابني شعور غريب عجيب من الوهن والتوهان، شعور لم أعرف له سببًا ولا عنوانًا، فها أنا على مرمى حجر من فلسطين، حيث القدس، وحيث جسد أخي النازف الذي ينتظر الدكتورة ملاك حتّى تضمّد جراحه، أو حيث جثمان أخي الشهيد الذي ينتظر منّي أن أقوم بتعطيره بأطيب العطور من مسك وعنبر حتّى يزفّ بعرس الشهيد، أو حيث ألقوا جثّته، هناك! أو هناك! لتنهشه وحوش الأرض في مقابر الأرقام، أو وحوش الطبّ الصهاينة في مشارح مشافيهم.

...وهن وتوهان شعور لم أعرف له سببًا ولا عنوانًا...

هذا هو حالي بعد أن تحوّلت الدقائق إلى ساعات، وغدت الساعات أيّامًا ثقيلة ترفض أن تمضي بحال سبيلها، وتتركني بهمّي ووهني وتوهاني وحزني وألمي.

# مقابر الأحياء

«كما يلقي الصهاينة جثث شهدائنا بمقابر أرقام الأموات، فإنّهم يلقون بأجساد أسرانا في مقابر أرقام الأحياء، لا تختلف المقابر عن بعضها سوى بالأسماء، فتلك مقبرة للأموات، وهذه مقبرة للأحياء، هناك أخي مالك، وهنا أنا.»

ما إن اجتزنا الحدود وأصبحنا في الجانب الفلسطيني منها حتّى تمّ اعتقالي من قبل قوّات الأمن الصهيونية الجاثمة في المعبر الحدودي، والتي قامت فور اعتقالي بتكبيل يديّ وقدميّ بالسلاسل الحديديّة بعد أن عصبوا عينيّ بقطعة من القماش الأسود النتن، وبعد ذلك قام الجنود الصهاينة بإلقائي على أرض إحدى العربات العسكرية التي انطلقت بي مسرعةً إلى مدينة القدس المحتلة حيث يوجد مركز التحقيق الأكبر هناك، وهو المركز المسمّى «مركز المسكوبية»، وهذا ما علمته فور وصولي إلى ذلك المركز أو سمِّه المسلخ.

قال المحقّق: أنت متهمة بالمشاركة بفعاليات ونشاطات تعادي أمن دولة إسرائيل وتحرّض ضدّها، والأهمّ من هذا وذاك أنّك يا دكتورة ملاك تنتمين إلى جماعة الإخوان المسلمين في الأردن، وهي جماعة إرهابية تسعى إلى تدمير إسرائيل والقضاءعليها، فما هو ردّك على هذه الاتّهامات التي نمتلك أدلّة دامغة على صحّتها؟

بعد صمت قليل قلت: لا أعلم عمّا تتحدّث، ثمّ صمتُّ صمتًا لا يعادله إلّا صمت القبور، وسعى المحققون الصهاينة إلى كسر جدار صمتي ودفعي إلى التّحدث بالترغيب تارة وبالترهيب تارات، لكنّهم وبفضل من الله تبارك وتعالى لم ينجحوا ولم يُكسر جدار صمتي، زجّوا بي في زنزانة وكأنّها القبر بضيق مساحته، وهوائه المنتن والمنعدم، وسواد لون جدرانه خشنة الملمس ميّتة الإحساس، ثمّ اقتادوني بعد عدّة أيّام من ذلك القبر إلى زنزانة أخرى، لا يمكن تشبيهها إلّا بثلّاجة حفظ الموتى، فهي شديدة البرودة لدرجة جعلتني شبه متجمّدة،

ففي هذه الثلاجة لا يوجد غير الصقيع الناتج عن الهواء البارد الجافّ، أمّا الأغطية فهي معدومة ومنها أنا محرومة كحرماني من النوم الذي امتدّ لعدّة أيّام، فتات طعام كريه لا يسدّ الجوع، بل يسدّ النّفس عن تناوله، وماء أصفر اللون صدئ الطعم، وكأنّه عصارة الحديد المهترئ، ضجيج امتدّ لأيّام عديدة، تلاها صمت لأيّام أخرى، محقّق يصطنع الطيبة والضعف، ومحقّق يصطنع التنمّر والقوّة.

امتدّت الأيّام ليلها كنهارها.. فلا شمساً أرى ولا قمراً، ولا ساعة في يدي أعرف منها تقلّب الليل والنهار، فقد صادر المحقّقون ساعتي وهاتفي وكلّ ما كنت أحمل معي في حقيبة يدي، التي لم أكن أحمل سواها عندما دخلت فلسطين، تلاحقت الأيّام وطالت، وأنا على حالي صامتة لا أفتح فمي إلّا لترتيل القرآن الكريم، الذي كنت أحفظ العديد من أجزائه، صلاة وتسبيح ودعاء وتضرّع، وبال مشغول بمصير أخي مالك، الذي ما زلت لا أعلم إن كان فوق الأرض حيًا يسعى، أم تحتها شهيدًا مسجّى، أم في ثلّاجة الموتى حيث تنهب أعضاء جسده العضو تلو العضو؟

وسط أحلام اليقظة.. كنت أبحر تارة على السطح، وتارة أغوص في الأعماق، فتتحوّل الأحلام إلى حقيقة وواقع؛ أفرّ به من واقعي المزري الذي أحياه داخل هذه الزنزانة المقيتة، التي تحوّلت بفضل الله إلى خلوة ربّانية، خلوة مع الله، فالله خيرٌ حافظًا وهو أرحم الراحمين.

لم يستخدم المحقّقون الصهاينة العنف الجسدي خلال تحقيقهم معي، بل اكتفوا بالعنف النفسي، وهو عنف لا يمكن تجاوزه إلّا بقوّة الإيمان أوّلًا، وبسعة الاطّلاع على ما يدور في دهاليز التحقيق ثانيًا، وقد منّ الله عليّ بقوّة الإيمان وثبات العقيدة، وقد كنت واسعة الاطّلاع كثيرة القراءة والسؤال عمّا يدور في دهاليز أقبية التحقيق الصهيونية والأوسلوية، ممّا جعلني أصل إلى نتيجة مفادها أنّ الصمت هو سرّ النجاة،

فاللسان كالحصان.. إن صنته صان.. وإن خنته خان.

بعد انقطاع التحقيق معي وتوقّفه، زارني محام لم أطمئنّ له، ولم أتعاطَ معه، لأنّني اعتبرته شخصًا غير مؤتمن، بعد تلك الزيارة بعدّة أيّام تمّ نقلي إلى معتقل سجن الرملة، حيث تقبع فيه العديد من الأسيرات الفلسطينيات، رغم حرارة ترحيبهنّ بي، ورغم حُسن اللقاء وكرم الضيافة (الجود من الموجود) إلّا أنّني حافظت على جدار الصمت قويًا ومتينًا، فلا حديث بأيّ حال من الأحوال عن قضيّتي، وهذا جعل حديثي مع أخواتي الأسيرات يتمحور حول الطبّ وهو مهنتي، وعن عمّان وهي المكان السابق لإقامتي، وعن أنواع الطعام والشراب والثياب، وعن أخي مالك الذي علمت منهنّ أنّه استشهد في اليوم الأوّل لإصابته، التي حدثت قبل سبعة وأربعين يومًا، وهي عدد الأيّام التي أمضيتها في مركز تحقيق المسكوبية، وقد علمت منهنّ أيضًا أنّ جثّة أخي الشهيد لم يتمّ تسليمها لعائلتي، ولم تدفن بمقابر أرقام الأموات، بل أنّ الصهاينة قد احتفظوا بها في ثلاجة الأموات الموجودة في مركز (أبو كبير) الصهيوني للطبّ العدلي.

لم تدمع عيناي عندما علمت بخبر استشهاد أخي مالك، وكأنّ قلبي قد تحجّر ومشاعري قد تجمّدت من قسوة التحقيق، ومن شدّة البرد الذي نخر عظامي في القبر المسمّى زنزانة، لكنّ عيون الأسيرات جنان وصفاء وجمانة ووسن ويافا و.. دمعت فدمعتُ، وبكينَ فبكيتُ، وانتحبنَ فانتحبتُ، وعندها عاد قلبي من التحجّر والانجماد ليكون قلب أختٌ ثكلى.

داخل المعتقل حيث عشت مع الأسيرات الفلسطينيات وعايشت قصصهنّ ومآسيهنّ ازداد حقدي وكرهي للصهاينة المحتلّين، الذين قتلوا ونهبوا وشرّدوا.. أوَلَم يَقتلوا:

ابنة الأمّ؟

وأب الابنة؟

وأمّ الابنة؟

وابن الأمّ؟

وأخ الأخت؟

والخال، والعمّ، والخطيب، والزوج، والصديق، والصديقة؟

فما عاد أمام الأسيرات الثكلاوات ابنة كانت أم أمًا، أختًا كانت أم زوجة، إلّا أن تنتقم وتثأر لدم شهيدها الذي أفقدها إيّاه الاحتلال، فما عاد أمامهنّ سوى حمل الخنجر والسكّين، وحمل المسدّس والرشّاش، وذلك عبر حملهنّ لراية الجهاد والمقاومة من أجل طرد المحتلّ الصهيوني، والمنحلّ الأوسلوي من أرضنا المقدّسة، لعلّ قدسنا وأقصانا يتحرّران من نير الظلم والطغيان، ومن التقتيل والبغي والحرمان.

مضت الأيّام.. وحكم الصهاينة عليّ بالسجن لمدّة عام كامل، وقد مضى ذلك العام بأكمله وأنا أشاهد الأمراض والأوباء تنهش أجساد الأسيرات المجاهدات الصامدات دون أن أتمكّن من تقديم العلاج اللازم لهنّ، فلا دواء لهنّ عندي سوى الدعاء والتضرّع للمولى عزّ وجلّ لعلّه يشفي أخواتي الأسيرات أو يخفّف عنهنّ ألمهنّ، كان عامًا طويلًا وقاسيًا، ممّا دفعني لأنّ أصبح قاسية وصابرة، وممّا أعاد قلبي لما كان عليه من التحجّر والانجماد مرّة أخرى.

وهنا أجزم أنّ قلبي قد أصبح أقسى من الفولاذ بعد أن تشبّع بالكره المطلق للمحتلّ والمنحلّ، وبالحقد المطبق الذي لا فكاك منه ولا دواء له إلّا بالقضاء على من سبّبه.

داخل المعتقل تحوّلت تدريجيًا من طبيبة جرّاحة إلى طبيبة نفسية، تحاول مداواة أمراض الجسد عبر فهمها لأسرار النفس، وداخل المعتقل أصبحت أيضًا أعرف العنوان الواجب عليّ التوجّه إليه كي أتحوّل بشكل صحيح وسليم وآمن من طبيبة جرّاحة إلى مهندسة مفجّرة، تجرح ولا تداوي، تقتل ولا تشفي، هناك أصبحت أعرف عنواني الجديد، عنوان المهندسة المقاومة، وهدف المهندسة المقاومة، وطريق المهندسة المقاومة، لذلك كنت على أحرّ من الجمر بانتظار إطلاق سراحي من المعتقل، حتّى أنطلق وبقوّة لرصف الطريق الذي عزمت على السير فيه بصمت: فلا للمشاركة بالمظاهرات والاعتصامات، ولا للتحريض عبر المواقع الإلكترونية، ولا للكتابة والقلم..

نعم.. لا لقلم الرصاص، وأهلًا ببندقية بارود الرصاص، وعبوات الرصاص، وفعل لهب الرصاص.

نعم للصمت ولا للضجيج

في صباح الغد سيتمّ إطلاق سراحي، لا، لا، فالساعة الآن قد تجاوزت منتصف الليل ببضع دقائق، وهذا يعني حكمًا أنّ أمس الأسر قد مضى، وأنّ يوم الحرّيّة قد حضر، يوم إطلاق سراحي وفكّ قيدي، وتحريري من أسري، وانطلاقي في طريقي، طريق المهندسة المقاومة.

تثور النار إن خنقت باللهب
وتحرق كلّ من للحقّ اغتصب
فكيف لا تثور الطبيبة من الغضب
فكيف لا تثور المهندسة من الغضب
فكيف لا تثور المقاومة من الغضب
فكيف لا تثور ملاك أخت مالك من الغضب
وتحرق كلّ من للحقّ اغتصب
وتحرق كلّ من للحقّ اغتصب
وتحرق كلّ من للحقّ اغتصب

# الحساب المفتوح

«عام مضى على وجود جسد أخي المنهوبة أعضاؤه في ثلّاجة حفظ الموتى، حيث تحوّل ما بقي من أعضاء جسده لكتلة جليدية تعصف بها رياح صقيع الحقد الصهيونيّ، فكيف لي أن أفتح صفحة المقاومة قبل أن أغلق صفحة الحساب المفتوح.»

بلا ضحكات مرح، وبلا زغاريد فرح، وبلا أهازيج، كان وداع الأسيرات اللواتي حملن السلاح، وسرن على درب المقاومة والكفاح، وكأنّهنّ يواسينني في ترح كلّه حزن وأسى؛ فكيف لمن فقد الأهل والأحبّة، ولمن أثقل القيد كاهلهُنَّ وأتعبهُنَّ طول انتظار التحرّر والتحرير أن يفرحنَ، ويمرحنَ ويزغردنَ، وهنّ قابعات مكبّلات خلف أسوار الأسر السميكة والمليئة بالقضبان الكثيفة، والسياج الشائكة المخيفة، حتّى لو كان السبب وداعهنّ لإحدى أخواتهنّ الأسيرات، ففي يوم وداعهنَّ لي عاد فكر كلّ واحدة منهنّ إلى (قبو) ذكرياتها، حيث تدفن مشاعر الحزن والأسى والاشتياق لمن تركتهم وفقدتهم قبل أن تقع أسيرة.

فهذه تركت والديها وأخوتها وأخواتها، وتلك تركت أبناءها وبناتها وزوجها، هذه دفنت أبًا أو أمًا أو أخًا أو أختًا، وتلك دفنت زوجًا أو ابنًا أو ابنة. فذكريات الحزن والأسى عند الأسيرات لا تنتهي ولا تنضب..

فما دام قلب الأسيرة ينبض.. فالذكريات لا تنضب

فلا نسيان ولا غفران في قلوب غدت وكأنّها قلب بركان لا يَكُفُّ عن الثوران والغليان..

كما حالُ الأسيراتِ في وداعهنَّ لي.. كان حال والدتي التي استقبلتني هي الأخرى بدموع الحزن والأسى التي كانت ترافقها منذ أن أُسرتُ وأُسِرَ جسد أخي الشهيد، فمنذ ذلك اليوم الذي شاهدنا فيه جسد أخي يسقط على الأرض،

مضرّجًا بدمائه، سقط قلبي وقلبُ أمّي في متاهة الألم والأحزان اللامتناهية.

أمضيتُ مع عائلتي المقدسية وجدّتي العَمَّانية التي حضرت خصّيصًا من الأردنّ لتكون على رأس المستقبلين والمهنّئين ليلة بدأت بما هو معتاد ومتوقّع، وانتهت بتحقيق أمنيات قديمة، أمنيات كانت بمثابة حلم بعيد التحقيق، حلم تحقّق بعد أن تجاوزته الأيّام والأحداث.

«دكتورة ملاك.. لقد اشترينا لك شقّة فخمة في مجمّع طبيّ كبير، وقمنا بتجهيزها بأفضل المعدّات الطبيّة الحديثة، وأجمل الديكورات العصرية، لتكون عيادة لك تمارسين عملك كدكتورة، يا دكتورة، هذا هو مفتاح العيادة التي تزيّنها يافطة جميلة يا ابنتي الحبيبة ملاك» هذا ما قاله لي والدي.

أمّا جدّتي العَمَّانية فقد قالت لي: «ألم تشتاقي لقيادة (جحدر) وعمل الحوادث المرورية به، لقد اشتريت لك (جحدرًا) جديدًا يليق بالدكتورة ملاك، حفيدتي المشاكسة، فهاك مفتاحه وضعيه بجانب مفتاح العيادة، وعقبال عند مفتاح شقّة الزوجيّة، ملاك إنّ (جحدر) يقف أمام المنزل نظيفًا ولامعًا، على عكس جحدرك القديم المغبرّ والرابض في كراج منزلي في عمّان بانتظار قدومك لزيارتي وزيارته هناك، في زيارة تنسيك عذاب الأسر».

أثناء حديث والدي وجدّتي ووالدتي التي بدأت بالتحدّث عن عمّتي التي تقدّمت لطلب يدي لابنها، وجدتُ نفسي أغمض عينيّ من شدّة الإرهاق والتّعب والنعاس، لأغطّ بعد ذلك رغمًا عنّي في نوم عميق، لم أستيقظ منه إلّا بعد ظهيرة اليوم التالي، ذلك أنّ النوم كان قد جافاني طوال الأيّام التي سبقت إطلاق سراحي، ممّا جعلني كبلهاء مجهدة وشاردة، استيقظت ليس لأنّي شبعت من النوم، بل لأنّ الصهاينة قرّروا أن أستيقظ، وذلك من خلال مداهمتهم لمنزل عائلتي الذي طرقوا بابه بقوّة همجية، صاحبها صراخ ونعيق، وكلّ ذلك ليس لشيء سوى أن يقولوا لي أنّ فلسطين بقدسها وأقصاها وبمنزلها القائم فيها ما زالت محتلّة، وأنّ كلّ من فيها ليس سوى أسير مكبّل بقيد الاحتلال ما دام يحيا فيها.

كم كنت أتمنّى لو أنّني أتمنطق بحزام ناسف حتّى أقوم بتفجير نفسي بهؤلاء الغربان المجرمين، وكم تمنّيت لو أنّ بيدي رشّاشًا لأطلق منه حمم الرصاص نحوهم، سحقًا لهؤلاء الغربان الصهاينة، الذين ذكّروني قبل أن أنسى، أنّ كشف حسابهم عندي ما زال مفتوحًا، كشف حساب على رأسه استعادة جسد أخي المنهوبة أعضاؤه من قبضتهم، وكشف حساب عقابهم على الجرائم التي ارتكبوها، وما زالوا يرتكبونها بحقّ ديني وشعبي وأرضي.

انصرف الغربان وغادروا منزلنا بعد أن لوّثوا هواءه بأنفاسهم النجسة، ولوّثوا أرضه بأحذيتهم القذرة، انصرفوا ولعنات والدتي وجدّتي تلاحقهم، ونظرات كرهي تطاردهم، وأمانيّ فكري تودّ لو تحرقهم وتحوّلهم إلى رماد يُلقى في جوف بركانٍ هادرٍ، حتّى لا يلوّث البرّ والبحر والسماء.

عيادة وسيّارة ومال وعريس.. لا، لا أريد العريس، بل أريد ما هو أنفس من العريس، أريد أن أنطلق بقوّة وحذر لكي أحرق هؤلاء الصهاينة الأباليس، نعم، سأنطلق بقوّة وحذر ومكر وكيد وتخطيط وإعداد واستعداد.

مضت الأيّام ومضيت معها، فقمت بافتتاح عيادتي بعد أن اجتزت اختبار مجلس الطبّ الصهيونيّ، وقدت سيّارتي بعد أن حصلت على رخصة لقيادة السيارات من إدارة ترخيص السائقين الصهيونية، كلّ ذلك حدث وأعين جهاز الأمن الداخليّ الصهيونيّ (الشاباك) تلاحقني وتراقب خطواتي، وتتابع تحرّكاتي، وتحلّل تصرّفاتي، تلك التصرّفات التي حرصت على ألّا يكون لها سوى تفسير واحد ووحيد، وهو أنّ ملاك ما عادت ملاك، بل أصبحت بشرًا يجري خلف المال والعمل وزخرف الحياة، بشرًا من عالم الشهادة، أي من العالم المشاهد والمرئيّ، لا ملاك من عالم الغيب والمجهول والاستتار.

مستترة ومتكتّمة.. ومن خلف ستار دخاني اصطنعته واختبأت خلفه بإتقان، بدأت مسيرة التّدرب على صناعة العبوات الناسفة، والأحزمة المتفجّرة، بعد أن حصلت على موافقة أحد تلامذة المهندس عيّاش،

وهو مهندس أسير منذ زمن بعيد، منذ أن عزّ الرجال، وقلّت الإبل الرواحل!

وقد وصلتُ إلى ذلك المهندس الأسير عن طريق زوجته الأسيرة جنان التي أقنعته بأن يسمح لها بأن تزوّدني بما كانت قد خبّأته له قبل أن يُؤسر وتُؤسر، فقد قامت جنان قبل أسرها بدفن (قِدرٍ) كبير يستعمل لطهو الطعام في جوف الأرض، بعد أن ملأت جوفه بالعديد من الدوائر الإلكترونية المعدّة سلفًا لوصلها بالموادّ المتفجّرة من أجل تفعيلها، مثل ساعات التوقيت، ولوحات التحكّم عن بعد، وأجهزة الهاتف النقّال المستعملة في العمليات التفجيرية، بالإضافة إلى جهاز حاسوب نقّال مَلَئَت ذاكرته بالأفلام التعليمية الخاصّة بالعمل الجهادي، وقد احتوى قِدرُ جنان على العديد من الذواكر الخاصة بتعليم عملية تصنيع الموادّ المتفجّرة وتجهيزها.

وقد حدث ذلك بعد أن تمّ إطلاق سراحي بنحو ثمانية أشهر، حيث تمّ إطلاق سراح جنان التي أتمّت محكوميتها البالغة أحدعشر عامًا، قضتها بعيدة عن أبنائها عقابًا لها على مساعدتها لزوجها المهندس أثناء أدائه لعمله الجهاديّ والمقاوم.

وجنان ذاتها مجاهدة، حيث كانت أثناء دراستها الجامعية إحدى أنشط الطالبات المنخرطات في صفوف الكتلة الإسلامية، وهي الذراع الطلابي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، فقد كانت تقود وتشارك في مختلف فعاليات الكتلة الطلابية مثل التظاهر والاعتصام، وزيارة أهالي الشهداء والأسرى، أي أنّها كانت من المجاهدات المنخرطات بكلّ الفعاليّات المناهضة للاحتلال الصهيوني وللانحلال الأوسلويّ، حالها كحال زوجها وابن عمّها المهندس القسّاميّ الذي تزوّجته بعد تخرّجه وتخرّجها من الجامعة، فرافقته ورافقها درب المقاومة والجهاد.

ذلك الدرب الذي وضعتُ قَدَمي على أوّلِه، وانطلقت بخطىً واثقة وثابتة نحو هدفي المقدّس المتمثّل بمقاومة الاحتلال والانحلال، وتلقينهما الدرس تلو الدرس، والصفعة تلو الصفعة.

رغم اطّلاعي على ما احتواه (قِدر) جنان من أرشيف هندسيّ تعليميّ متكامل، ورغم حصولي على ما كان في داخله من دوائر إلكترونية متعدّدة الأنواع والاستخدام، إلّا أنّني أدركت في قرارة نفسي أنّ هناك فرقًا شاسعًا ما بين النظرية وعلمها، وما بين التطبيق العمليّ لتلك الدراسة، لذلك أمضيت العديد من الأيّام والليالي وأنا أشاهد الفيديوهات التعليمية، وقراءة الموادّ المكتوبة، ومحاولة دراسة ما فيها من تعليمات وتوجيهات، لعلّي أتمكّن من فهمها بالقَدر الذي يمكّنني من المزاوجة بين العلم النظريّ والعمل التطبيقي، فأنا مجرّد فتاة كانت تهوى تشريح الضفادع، فغدت طبيبة تجيد إجراء العمليات الجراحية، وتحلم بأن تجيد تنفيذ العمليات الجهادية.

تدريجيًا بدأت أرتّب أفكاري وأوراقي وأرشيفي الهندسي، بل إنّني قمت بتحويل الصيغ الهندسية الإلكترونية، والصيغ المخبريّة الخاصّة بتصنيع الموادّ المتفجّرة، إلى صيغ طبيّة مشفّرة، تخلو تمامًا من أي كلمة هندسية، أو مصطلح كيميائي، ممّا مكّنني من فهم تلك الصيغ بصورة أفضل بكثير من لو أنّها بقيت بصورتها الأصلية، هذا من جانب، ومن الجانب الآخر لأنّ تلك الأوراق التعليمية احتوت على توجيهات صارمة بضرورة العمل على تشفير كلّ الصيغ والمعادلات والمعلومات والخطط، حتّى لا تقع لقمة سائغة بأيدي المحقّقين الصهاينة في حال وقوع المجاهد الذي يمتلكها.

لقد كان تشفير تلك الأوراق وما حوته أمرًا ممتعًا جدًا، جعلني أشعر وكأنّ المعركة مع المحتلّ قد بدأت بشكل فعليّ، وأنّ حرب العقول هي عماد تلك الحرب التي قرّرتُ خوضها.

وهنا أجزم أنّ الشيفرة التي اعتمدتها ستُعجز أمهر الخبراء في فكّ الشيفرات عن فكّها وكشف سرّها، فهي شيفرة تعتمد على ما يعرف علميًا بـ (الشيفرة الوراثية) وهي شيفرة طبيّة لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالهندسة الإلكترونية أو الكيميائية، وذلك لأنّها تعتمد على الهندسة الوراثية للخلايا البشرية أو الحيوانية أو النباتية.

وما إن انتهيت من عملية التشفير حتّى قمت وعلى الفور بإعدام وإتلاف كلّ ما زوّدتني به جنان من ذواكر ملأى بالمعلومات الهندسية، وأوراق متخمة بوصايا المقاومين الأمنية والفكرية، بالإضافة إلى جهاز الحاسوب الذي كان يحتوي على كنز لا يقدّر بثمن من الموادّ التعليمية الشاملة والكاملة، أمّا اللوحات والدوائر الإلكترونية وأدوات التفجير المتنوّعة، فقد عملت جاهدة على إخفائها في مخابئ عدّة، بعيدًا عن عيادتي وسيّارتي ومنزل عائلتي، بل بعيدًا عن كلّ ما يَمتُّ لي بصلة مباشرة أو غير مباشرة.

بعد ذلك بدأت بشراء المواد الكيميائية اللازمة لعملية تصنيع الموادّ المتفجّرة، بكميّات صغيرة جدًا جدًا، مموّهة عملية شرائي لتلك المواد المصنّفة على أنّها موادّ ذات استعمال مزدوج، بغطاء يجعل القائمين على عملية بيعها وتسويقها لا يشكّون بأنّ مشتريها سوف يستعملها خارج إطار القانون الصهيوني والأوسلويّ المضادّ لقانوني وقانون المقاومة والجهاد.

لقد تحوّلت عيادتي من مركز لإدارة عملي الطبيّ في ظاهره، إلى مركز أخفي فيه عملي المقاوم الذي كان عماده حرائر فلسطين، تلك الحرائر اللواتي قرّرن حمل اللواء، قبل وبعد أن تَخَلّى من يفترض بهم أن يكونوا رجالًا أحرارًا عن رجولتهم وحريّتهم، وارتضوا لأنفسهم أن يصبحوا عبيدًا خانعة وخاضعة للمحتلّ الصهيونيّ والمنحلّ الأوسلويّ.

وعلى الرغم من أنّ حرائر فلسطين كنّ عماد عملي الجهاديّ، إلّا أنّني اضطررت إلى الاستعانة مرغمة بأحد الأحرار، وهو النبيل نبيل، ذلك المهندس الذي أجاد القرصنة الإلكترونية وفنونها، لكنّ الاستعانة به لم تكن سهلة على الإطلاق، حيث أنّني احتجت للوصول إليه إلى الوصول إلى الأردنّ أوّلًا، ثمّ الوصول إلى بيسان ثانيًا، بيسان أخته وصديقتي التي عملت فور وصولي إلى عمّان على الحضور إلى منزل جدّتي من أجل السلام عليّ، ولتهنئتي على الخروج من الأسر، رغم أنّها هنّأتني هاتفيًا في اليوم الأوّل لتحرّري،

وبَقيَت على تواصل معي طوال تلك الفترة التي تَلَت تحرّري، انزويتُ ببيسان وأسررتُ لها بما نويت الإقدام عليه، فلم تتردّد على الإطلاق، بل إنّها عملت على تأمين لقاء يجمعني بأخيها بنبيل في اليوم التالي لوصولي إلى عمّان.

نبيل سوف أقوم بتنفيذ ستّ عمليات تفجيرية ضدّ أهداف صهيونية في قلب فلسطين المحتلّة، وستكون تلك العمليّات على التوالي، وضمن جدول زمني محدّد مسبقًا، والمطلوب منك وببساطة شديدة بصفتك مهندس حواسيب متمكّن هو أن تتولّى عملية الإعلان عن تلك العمليّات المقاومة، أي أنّني أريد منك أن تتبنّى المسؤولية عن تنفيذ تلك العمليّات، دون أن تتمكّن أجهزة الأمن الصهيونية والعربية المتعاونة معها من تحديد هويّتك، أو حتّى من تحديد الدولة التي قمت بتبنّي العملية من خلالها.

نبيل.. إيّاك أن تقول أنّني أخطأتُ العنوان، كما سبق لك أن قلتَ عندما طلبتُ منك تعليمي وتوجيهي لكي أصبح مهندسة مقاومة، لقد أصبحت بفضل الله تبارك وتعالى مهندسة قسّاميّة بكلّ ما تحمل الكلمة من معنى، بعد أن توجّهت إلى العنوان الصحيح هناك في فلسطين، لذلك فإنّ توجّهي لك في الأردنّ يعود لكوني أعلم علم اليقين أنّك العنوان الصحيح لما عزمتُ على القيام به من عمل مقاوم، فما هو ردّك على طلبي هذا يا أخ نبيل؟

أختي ملاك.. إنّ الكلام الذي سمعتُهُ منك ليس كلامًا يحمل في طيّاته طلبًا عاديًا يمكنني الردّ عليه بالقبول أو الرفض، إنّما هو أمرٌ عسكريٌّ مباشر، لا يسعني سوى الاستجابة له بشكل إيجابي..

أخت ملاك.. أنا موافق على العمل تحت إمرتك بلا تردّد أو تحفّظ، فأنت المهندسة وأنا رفيق دربك المقاوم.

أخت ملاك.. سوف أطلب من والدتي أن تقوم بزيارة والدتك وجدّتك غدًا إن شاء الله لكي تقوم بخطبتك لي، وهذا أمرٌ آمرك به، وليس طلبًا يمكنك رفضه؛ إنّ عملنا المقاوم جنبًا إلى جنب يعني ارتباط مصير أحدنا بالآخر، لذلك فلنكن زوجين مقاومين.

أخ نبيل.. أرجو أن تعلم أنّني لا أرغب بالاقتران بأيّ أحد، لا بمهندس مقاوم! ولا مهندس مقاول! لأنّي كرست حياتي قبل دراستي للطبّ الشافي، والشافي هو الله، وبعد دراستي للهندسة المميتة، والمحيي والمميت هو الله، لهدف واحد ووحيد.. هو مقاومة الاحتلال الصهيوني والانحلال الأوسلويّ، فلا أريد أن أكبّل يديّ بخاتم زواج يقيّد إصبعي.. فَيَدَيَّ.. فَفكري.. فَعَقلي.

أخت ملاك.. لست قيدًا، ولست انتهازيًا، فلو سألت بيسان صديقتك لوجدتها تقول أنّني طلبت منها عدّة مرّات بأن تفاتحك برغبتي بالارتباط بك منذ زمن بعيد، منذ أن حضرت للدراسة في الأردن، وبعد أن أنهيت دراستك، وحين وقعت أسيرة، وبعد أن تحرّرت وكُسِرَ قيد يديك، طلبتُ من بيسان أن ترسل لك رسالة عندما علمنا بوقوعك بالأسر، لتبلغك بها عن رغبتي الزواج منك، لكنّها رفضت ذلك، وطلبت منّي تأجيل طلبي المرّة تلو المرّة. قالت إنّ أخاك استشهد وأنّ عليَّ أن أحترم مشاعرك، ففعلتُ.

قالت إنّها أسيرة، فقلتُ سأنتظر حتّى تتحرّر، وقالت إنّ ملاك ما عادت ملاك التي تعرفها، فبعد أن سُجنت وتحرّرت أصبحت بشرًا حالها كحال أهل الدنيا الذين يجرون خلف المال والمادة، فقلت إنّ الملائكة تبقى ملائكة، والشياطين تبقى شياطين، أمّا البشر فهم بين هؤلاء وهؤلاء، وملاك ليست بشرًا ولن تكون بشرًا، لأنّها ملاك.. والملاك يبقى ملاكًا، وعندما علمتُ من بيسان نبأ حضورك إلى عمّان، طلبتُ منها أن ترافق والدتي لزيارتكم، لكي تقوم والدتي بطلب يدك من والدتك. أقسم لك أنّ هذا ما حدث، وأنّ تلك هي النيّة التي عقدت عليها أمري، قبل أن تحضري اليوم للقائي، وقبل أن تطلعيني على سرّ زيارتك لعمّان وَلِي.

أخت ملاك.. لست شخصًا انتهازيًا، لا وربّ الكعبة، فأنا مجرّد شابٌّ ملتزم بدينه، ومؤمن بقضيّته الفلسطينية، يرغب بالاقتران بشابّة ملتزمة دينيًا، ومؤمنة بواجبها نحو القضية الفلسطينية، أنا مجرّد عاشق للمقاومة، محدود الإمكانيّات بسبب القيود، والحدود الفاصلة بين الأردنّ وفلسطين،

مقاوم يرغب في الارتباط بمقاومة أصرّت على تحويل اللاممكن إلى ممكن، فَنَجَحَت في كسر كلّ القيود، وتجاوزت الحدود، فَقَلَبَت المستحيل إلى لا مستحيل.

أخ نبيل.. لا أشكّ بصدق نيّتك وكلامك، ولا بنبل أخلاقك، لكن يجب أن تعلم أنّ هناك كشف حساب مفتوح مع الاحتلال الصهيوني، يجب عليّ إغلاق أوّل استحقاق فيه، فالصهاينة المجرمون ما زالوا يحتفظون بجثمان أخي الشهيد مالك، وبعشرات بل مئات جثامين الشهداء، سواء في مقابر الأرقام، أو في ثلّاجات نهب أعضاء الموتى، حيث يقبع جثمان أخي منذ ما يزيد على عام ونصف العام، لذلك لن تسمع منّي إجابة على طلبك قبل أن أستردّ جثمان مالك، وجثامين إخوته وأخواته الشهداء، ويواروا الثرى في مقابر الشهداء معزّزين مكرّمين.

أنهيت لقائي مع نبيل بعد أن اتّفقنا معًا على التفاصيل التي يجب أن تتضمّنها البيانات العسكرية الستّة للعمليّات الجهادية التي أعلمته بمواعيد وأماكن تنفيذها، ثمّ قمت بتزويده بمواقع فيديو مصوّرة لتلك الأماكن والأهداف التي عزمت على ضربها، حتّى يقوم ببثّها مرفقة مع البيانات.

إلى القدس عُدتُّ وأنا أردّد ما قاله الشاعر:

شهداؤنا.. بين المقابر يهمسون
والله إنّا قادمون
في الأرض ترتفع الأيادي
والله إنّا راجعون
والله إنّا عائدون

**********

شهداؤنا.. خرجوا من الأكفان
وانتفضوا صفوفًا ثمّ راحوا يصرخون:
عار عليكم أيّها المستسلمون
وطنٌ يباع وأمّة تنساق قطعانًا
وأنتم نائمون.. نائمون

**********

شهداؤنا.. فوق المنابر يخطبون
شهداؤنا.. وسط المجازر يهتفون
شهداؤنا.. في كلّ شبر يتقدّمون.. ويصرخون:
يا أيّها الأحياء ماذا تفعلون؟
في كلّ يوم كالقطيع على المذابح تصلبون
تتسرّبون على جناح الليل
كالفئران سرًا للذئاب تهرولون
يا طغمة الجرذان بالوطن الجريح تتاجرون
يا أيّها الأوسلويّون المتشرذمون
أكفاننا ستضيء يومًا في رحاب القدس
سوف تعود تقتحم المعاقل والحصون
وسنخلّص شهداءنا الموتى وما هم بموتى من الأحياء
من سفه الزمان العابث المجنون
والله إنّا قادمون.. قادمون

(فاروق جويدة من ديوان (لو أنّنا لم نفترق) وبتصرّف من الكاتب بما يتناسب مع الرواية)

# بيان رقم واحد

البيان العسكري رقم واحد

«تكمن أهميّة البيان العسكريّ رقم واحد في أنّه الإعلان الرسمي لتحويل الأمنية والنيّة إلى إعداد واستعداد، وتحويل الإعداد والاستعداد إلى عمل جهاديّ حقيقيّ..»

الكتائب

(كتيبة عواصف الجثامين)

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ التوبة: ١٤

تعلن الكتائب عن إطلاقها لعمليّات (عواصف الجثامين)، وهي العمليات الجهادية المتلاحقة، التي لن تتوقّف قبل أن يتمّ استرداد جثامين شهدائنا المختطفة من قبل قوّات العدوّ الصهيونيّ الجبان.

في هذا البيان المعنون برقم (١) نعلن عن مسؤولية (كتيبة عواصف الجثامين) عن العملية التفجيرية التي استهدفت تدمير الحافلة الصهيونية الخالية من الركّاب على الطريق الموصل إلى مدينة صفد الفلسطينية المحتلّة، وإنّ مقتل سائق الحافلة الصهيونيّ حرقًا بجوف حطام الحافلة المشتعلة ليس سوى البداية.

فنحن في (كتيبة عواصف الجثامين) لا نسعى إلى إيقاع عدد كبير من القتلى الصهاينة في هذه المرحلة من عمليّاتنا الجهاديّة، لعلّ قادة الكيان الغاصب يعودون إلى رشدهم، ويعيدون جثامين شهداء فلسطين إلى ذويهم ليدفنوهم معزّزين مكرّمين، قبل أن نبدأ باستهداف الحافلات الصهيونية المكتظّة، وبضرب الأهداف التي تعجّ بالصهاينة المحتلّين.

لقد أقسمنا بالله العليّ العظيم واضعين ميامين سواعدنا على القرآن الكريم، وقابضين بيسرانا على بنادقنا وعبواتنا المتفجّرة، ومتمنطقين بأحزمتنا الناسفة، ألّا نترك عدوّنا الصهيونيّ ينام ويهنأ، ما دامت عيون أمّهاتنا وأخواتنا وبناتنا ساهرة متألّمة لا تنام.

(كتيبة عواصف الجثامين)

بيان رقم واحد

(الكتائب)

بهذه الكلمات الواضحة والجليّة والتي أرفقت بتصوير فيديو يظهر عملية رصد حافلة مدينة صفد المحتلّة قبل عدّة أيّام من عمليّة تفجيرها، قام نبيل بتبنّي العملية الجهادية الأولى لي كمهندسة عمليّات جهادية.

صعبة ومعقّدة ومربكة كانت تلك العملية؛ فالموقع المستهدف كان مدينة صفد المحتلّة، وهي المدينة التي لفظت ذاك الأوسلويّ الانحلالي الذي خانها وباعها جهارًا نهارًا من خلال إعلانه الوقح عن تنازله عن حقّ العودة إلى مسقط رأسه صفد، وبأنّه لا يريد العودة إليها لأنّها أصبحت جزءًا لا يتجزّأ من (إسرائيل)، باع صفد، فقرّرت أن أعيد صفد إلى الذاكرة من جديد، من خلال التأكيد أنّ صفد ك القدس، والقدس ك اللّد، واللّد ك رام الله، ونابلس، وغزّة.. كلّها مدن فلسطينية محتلّة، لا تنازل عنها ولا تفريط.

الهدف حافلة صهيونية خالية من الركّاب، وذلك لأنّي أردت أن أتدرّج في عملي كمهندسة عمليّات جهاديّة أوّلًا، وأردت ثانيًا أن أوجّه رسالة واضحة وجليّة للعدوّ الصهيونيّ، مفادها أنّني لو أردت إيقاع عدد كبير من القتلى الصهاينة لفعلت.

تاريخ تنفيذ العملية وهو ٥/١/.. وهو التاريخ الموافق لاستشهاد مهندس القسّام الأوّل يحيى عيّاش، وذلك كي أعيد تذكير الصهاينة بعمليّات العيّاش يحيى الذي أذاقهم المرّ والعلقم والموت، فالعيّاش حيّ ما دام تلامذته أحياء.

أمّا اسم الكتيبة الذي أطلقته على المجموعة المنفّذة وهو (كتيبة عواصف الجثامين) فهو اسم اختير لربط ما تقوم به هذه الكتيبة بشكل مباشر وحصري بملف استعادة جثامين شهداء فلسطين، وذلك حتّى لا يتعارض عمل الكتيبة المجاهدة مع أيّ من الكتائب الأخرى العاملة في ميدان المقاومة والجهاد؛ فأنا أردت أن يكون لي خليّة مقاومة أخرى تحمل اسمًا آخر وتخصّصًا آخر.

الصعوبة والتعقيد هنا تكمن في القدرة على زراعة العبوة الناسفة وإدخالها إلى الحافلة دون أن تتمكّن أجهزة الأمن الصهيونية من اكتشاف هويّة المجاهدة التي قامت بتلك المهمّة، وقد حدث ذلك بعد عملية رصد شاقّة لسائق الحافلة، الذي كان من عادته أن يقوم بحمل حقيبة كتف يضع داخلها طعامه وشرابه وبعض لوازمه الخاصّة، رُصد السائق وتمّ استغفاله وزراعة العبوة الناسفة داخل حقيبته، تلك العبوة التي لم تكن تشكّل للناظر إليها شيئًا ملفتًا أو مثيرًا للاهتمام، فهي مجرّد علبة من نفس نوع العصير الذي يشربه السائق أثناء تناوله لطعام الغداء، وقد احتوى جوف علبة العصير تلك على مادّة شديدة الانفجار، وصلت بمؤقّت إلكتروني، ولم تكن تلك العبوة تحتوي على أيّ نوع من الشظايا المتناثرة والقاتلة، وذلك لأنّ الهدف المرجوّ من العبوة هو تفجير الحافلة وجعلها تحترق، وقد احتوت تلك العلبة على مادة قابلة للاشتعال، وذلك من أجل تأكيد عمليّة احتراق الحافلة، وهو ما درسته وتعلّمته من الأرشيف الهندسي الذي زوّدتني به جنان.

رُصدت الحافلة، ورُصد سائقها، وزُرعت العبوة، وانفجرت في الزمان والمكان اللذين أردناهما، بحيث لم يكن على متن الحافلة أيّ راكب، باستثناء سائقها، الذي كان جنديّ احتياط في جيش العدوّ الصهيونيّ، وأعلن نبيل عن تبنّي تلك العملية، وبعد ذلك عاد الكلّ بفضل من الله إلى عمله ومسكنه وحياته الاعتيادية سليمًا معافى، دون أن يترك خلفه أثرًا يدلّ عليه، خاصّة مريم، وهي إحدى المجاهدات اللواتي كنّ يتلقّين علاجهنّ عندي،

فمريم كانت الشخص المكلّف بزراعة العبوة الناسفة داخل حقيبة سائق الحافلة بعد رصدها له، وقامت بمهمّتها تلك بعد أن استغفلت سائق الحافلة أثناء شرائه لبعض السندويشات والمشروبات والمكسّرات من أحد المطاعم قبل توجّهه إلى عمله، وهي أيضًا من كانت تتابع خطّ سير الحافلة من أجل معرفة الزمان والمكان المناسبين لعملية التفجير.

قبل عدّة أيّام من تفيذ عمليّة حافلة صفد، توقّفت مريم عن الحضور إلى عيادتي لتلقّي العلاج عندي، وذلك تحت ذريعة شفائها من المرض الذي كانت تعاني منه، ذلك المرض الذي شفيت منه بفضل الله بعد وقت قصير من معالجتي لها، إلّا أنّها استمرّت في الحضور إلى عيادتي تحت حجّة مواصلتها للعلاج، وذلك بعد أن اتّضح لي ولها مدى كرهنا للاحتلال الصهيونيّ المجرم، ومدى رغبتنا المشتركة في العمل معًا على مقاومة ودحر الصهاينة من فلسطين، عبر استعمال القوّة المجبولة بالنار والحديد والبارود.

فقد علمتُ من مريم أثناء زيارتها العلاجية الأولى لعيادتي، أنّها طالبة في كليّة الحقوق في إحدى جامعات الضفة الغربية المحتلّة، وأنّها كانت من ساكني مدينة صفد، إلّا أنّها قدمت إلى مدينة القدس حيث تقع عيادتي، بعد أن استشهد والدها على يد قوّات الاحتلال الصهيوني، التي زعمت أنّه قام بمحاولة لدهس جنود صهاينة بواسطة الشاحنة التي كان يقودها، فوالد مريم كان يعمل سائقًا لشاحنة تقوم بنقل البضائع بين أرضنا الفلسطينية التي احتلّت عام ١٩٤٨م وأرضنا الفلسطينية التي احتلّت عام ١٩٦٧م.

وقد أظهر تصوير فيديو لأحد الهواة زيف وكذب ادّعاءات الجنود الصهاينة القتلة، الذين قتلوا والدها بدم بارد، حاله كحال العديد من الفلسطينيّين الأبرياء، الذين قُتلوا على أيدي الجنود الصهاينة، ليس لشيء إلّا لأنّ قادة أولئك الجنود أرادوا إيصال رسائل ردع وإرهاب لأبناء فلسطين.

# ناقلة الوقود

«إنّ سلامة التنفيذ تعتمد اعتمادًا كليًا على سلامة التخطيط، وسلامة التخطيط تعتمد هي الأخرى اعتمادًا كبيرًا على سلامة عملية الرصد والمتابعة والمراقبة».

نعم، فحكماء المقاومة الذين قرّرت السير على دربهم، علّموني أنّ سلامة تنفيذ العملية الجهادية يعتمد اعتمادًا كلّيًا بعد توفيق الله تبارك وتعالى على سلامة عمليّة التخطيط، فدون عمليّة تخطيط صحيحة مبنية على معطيات عملية الرصد والمتابعة والمراقبة، لن يكون هناك مقدرة على تنفيذ العملية الجهادية بشكل ناجح وصحيح.

رصد.. تخطيط.. تنفيذ

إنّ الرصد والتخطيط والتنفيذ كلّ لا يتجزّأ، وكلّ لا يمكن له أن يرى النور بلا فكرة، لذلك عصفت أفكار.. وأفكار، فتبلور لديّ التصوّر الأوّلي العامّ لماهيّة العمليّة التي أردتُ لها أن تكون بعد عمليّة حافلة مدينة صفد، كلّ ذلك حدث قبل أن أسافر إلى الأردنّ، وقبل أن تُكتب بيانات الإعلان والتبنّي.

فعندما كنت أقوم بملء خزّان وقود سيّارتي في إحدى محطّات تعبئة الوقود، شاهدت شاحنة كبيرة تستخدم لنقل الوقود، وهي تقوم بتفريغ حمولتها في جوف خزّان وقود تلك المحطّة، وعندها أدركت أنّ إحدى ناقلات الوقود ستكون هي هدفي الذي سأقوم برصده، ثمّ التخطيط لعملية ضربه وتفجيره، انتهيت من عملية ملء خزّان وقود سيّارتي، وانتظرت إلى جوار محطّة الوقود التي كانت تعجّ بكاميرات المراقبة التي لا يكاد مكان عامّ أو مؤسّسة خدمية تخلو منها.

أتمّ سائق الناقلة وعامل المحطّة إفراغ حمولتها، ثمّ غادرت الناقلة المكان، فقمت بملاحقتها حتّى وصلت إلى المستودع المركزيّ لتخزين الوقود، الذي ما كان لها أن تدخل إليه إلّا بعد أن اجتازت الفحص الأمنيّ والحراسة،

المتواجدين على الحاجز الأمنيّ الجاثم بالقرب من بوّابة الدخول إلى المستودع المركزي، الذي كان له بوابة أخرى تستخدم للناقلات المغادرة.

فعدت أدراجي إلى عيادتي حيث بدأت بوضع خطّة استهداف إحدى ناقلات الوقود، من خلال عبوة صغيرة الحجم كبيرة المفعول تلتصق بالناقلة المستهدفة بواسطة مغناطيس يجمع بينها وبين جسد الناقلة، ويتمّ تفعيل عمليّة تفجيرها بواسطة هاتف نقّال يعمل من خلال شريحة اتّصال مجهولة الهويّة والمصدر، حالها كحال الشريحة الثانية التي سأستعملها في الاتّصال على الشريحة الأولى، هاتف نقّال وشريحة اتّصال حصلت عليها من أحد تجّار البيع بالتجزئة الذين يبيعون ويشترون دون أن يستعملوا الفواتير الرسميّة، وذلك حتّى يتهرّبوا من دفع الضرائب، ولكن أنّى للمحتلّ المجرم أن يتهرّب من دفع ضريبة احتلاله لأرضي، وقتله لشعبي، واختطافه لجثامين الشهداء الأبرار.

في يوم تنفيذ العملية الذي تمّ تحديده مسبقًا بناء على عملية الرصد والمراقبة الحثيثة التي قمت بها طوال الفترة الماضية، انتظرت حتّى أفرغ صهريج الوقود المستهدف حمولته ثمّ قمت بملاحقته، بعد أن غادر المحطّة الأولى التي كانت تعجّ بكاميرات المراقبة والتصوير، منتظرة توقّفه إلى جوار محطّة الوقود الثانية التي كان من عادته أن يقوم فإفراغ النصف الآخر من حمولته في جوف خزّاناتها، فهي محطّة صغيرة الحجم تقع في إحدى التقاطعات المزدحمة، ممّا يجعل الدخول إليها يتطلّب الانتظار لبعض الوقت، ريثما يتهيأ المكان لاستقبال الصهريج خاصّة في يوم الجمعة صباحًا.

في تلك الأثناء ترجّلت من سيّارتي حاملة معي العبوة الناسفة، والتي كانت على شكل أنبوب مطاطيّ، من نوع قريب من ذاك المستعمل في عمليّة ضخّ الوقود، ثمّ اقتربت بحذر من أحد جوانب الناقلة حيث لا يمكن لأحد أن يراني وعندها قمت بإلصاق العبوة بها عبر المغناطيس الموجود داخلها.

رصدت السائق وهو يقوم بإفراغ باقي حمولته البترولية في تلك المحطّة، ثم انطلقت نحو مكان يُطِلُّ على مدخل مستودع الوقود المركزيّ، وشاهدتُ العديد من صهاريج الوقود وهي تخضع لتفتيش شكلي روتيني قبل دخولها المستودع، مرّت الدقائق كعادتها في مثل هذه الظروف الاستثنائية ثقيلة الظلّ، لكنّها ما لبثت وأن أصبحت تسابق الضوء سرعة عندما وصلت ناقلة الوقود المفخّخة، التي خضعت إلى ذلك التفتيش الاعتياديّ واجتازته واجتازت من بعده البوّابة الموصلة لقلب مستودع الوقود المركزيّ.. حيث انفجرت.

حدثت عملية التفجير عندما توقّفت إلى جانب إحدى الطرق الزراعية النائية وقمت بتشغيل الهاتف الذي كنت قد أعددته لتلك المهمّة، وأرسلت منه إشارة التفجير للهاتف الآخر الموجود في جوف الأنبوب الذي سبق لي إلصاقه بالناقلة التي تحوّلت إلى كتلة من اللّهب في ثوانٍ معدودة، نجا سائق الناقلة من الانفجار، لكنه أصيب بحروق بليغة ما لبثت بعد عدّة أيّام أن أدّت إلى مصرعه.

تبنّى نبيل العملية التي كنت أودّ في قرارة نفسي بأن تؤدّي إلى تحويل المستودع المركزيّ للوقود إلى كتلة من لهب بفعل الناقلة المحترقة، إلّا أنّ الناقلة كانت عند انفجارها تقف بعيدًا في موقف الانتظار ريثما يأتي الدور عليها لتملأ بالوقود من جديد.

ورغم أنّ المستودع لم ينفجر، إلّا أنّها كانت ضربة قويّة وفي الصميم تلقّتها منّي أجهزة الأمن الصهيونية، التي علمت من خلال بيان نبيل مدى جدّيّة (كتيبة عواصف الجثامين)، تلك الكتيبة التي قامت في اليوم التالي لعملية ناقلة الوقود بتفجير عبوتين ناسفتين كانتا قد زرعتا مسبقًا داخل حاويتين للقمامة من ذلك النوع الذي يعلّق عادة على أعمدة الإنارة الموجودة على الأرصفة المستعملة من قبل المشاة والمتسوّقين، كانت تلك العبوتان مخفيّتين داخل كيسين ورقيّين يعودان إلى أحد المطاعم المشهورة بتقديم الوجبات السريعة، وكنت قد حصلت على تلك الأكياس قبل عدّة أشهر من إطلاقي لسلسلة العمليات الجهادية الخاصة باسترداد جثامين الشهداء.

انفجرت العبوتان من تلقاء نفسهما، وذلك بمجرّد أن أصبحت الساعة المؤقّتة لعملية التفجير الساعة الرابعة عصرًا، حيث تعدّ تلك الساعة ساعة الذروة بالنسبة للمشاة والمتسوّقين الصهاينة، وذلك حسبما كنت قد رصدت واستطلعت المكانين اللذين وضعت فيهما العبوات صباح نفس اليوم الذي توجّهت فيه لزراعة عبوة ناقلة الوقود، فقد تبيّن لي خلال عملية الرصد أنّ تلك الحاويات لا يتمّ تفريغ محتواها إلّا كلّ ثمانٍ وأربعين ساعة مرّة واحدة، ممّا أتاح لي الوقت الكافي لكي أزرع العبوات وأعود أدراجي، حتّى ألاحق ناقلة الوقود وأفجّرها، وكما هو متّفق عليه فقد تبنّى نبيل تلك العمليّتين، معلنًا أنّ هناك المزيد والمزيد من العمليّات الجهادية ما لم يفرج الصهاينة عن جثامين الشهداء.

لقد أوقعت كلتا العمليّتين أربعة قتلى ونحو ثلاثين مصابًا صهاينة، كان هذا العدد من الجرحى والقتلى كافيًا بالنسبة لما وضعته من خطّة متدرجة بأن تجعل المستويين الأمني والسياسي الصهيوني يفكّران بجدّية الخلاص من العبء الذي خلّفه احتجازهم لجثامين شهداء فلسطين، هذا ما تناقلته وسائل الإعلام الصهيونية الخاضعة وبشكل صارم جدًا لمقصّ الرقيب العسكري الصهيوني، الذي لا يسمح لوسائل الإعلام الصهيونية الحكومية أو الخاصّة أن تتطرّق لأيّ موضوع أمني إلّا بموافقة ذلك الرقيب، الذي ما كان له أن يسمح لها بنشر خبر مفاده أنّ المحكمة الصهيونية العليا قد قرّرت إلزام الحكومة بتسليم جثامين الشهداء بعد أن قُدِّمَ لها العديد من القضايا التي رفعها أهالي وذوو الشهداء، لولا أنّ له هدفًا مخفيًا من وراء هذا الخبر.

لقد كان نشر هذا الخبر وتسويقه على أنّه قرار قضائيّ مستقلّ، مدعاة للسخرية من قبل عامّة الفلسطينيّين، بل ومن قبل المحلّلين السياسيّين الصهاينة وغيرهم، حيث أدرك القاصي والداني مدى فعاليّة العمليّات الجهادية التي قامت بها (كتيبة عواصف الجثامين)، والتي أجبرت الصهاينة الذين احتلّوا سدّة الحكم في دولة الاحتلال على الرضوخ لمطالب الكتيبة، لا لمطالب محكمتهم الصورية الخاضعة لإمرة أولئك المحتلّين المجرمين.

مضت الأيّام ولم تنفّذ أجهزة الأمن الصهيونية قرار المحكمة، متحجّجة بذرائع واهية، كان على رأس تلك الذرائع والحجج أنّ أهالي الشهداء رفضوا أن يتعهّدوا لأجهزة الأمن الاحتلالية بدفن جثامين أبنائهم تحت جنح الظلام، وبأن تتمّ عملية الدفن تلك بحضور عدد لا يتجاوز العشرين من المشيّعين، وعلى أن يكونوا كلّهم من الإقارب، وألّا تكون هناك مسيرات تشييع وكلمات تأبين.

رفض الأهالي الاشتراطات الصهيونية لاستلام جثامين أبنائهم ودفنها تحت جنح الظلام وكأنّها جثامين تعود إلى مجرمين أو لصوص، لا إلى أحرار منتفضين.

وقد استمرّ الإعلام الصهيوني الموجّه كليًا بتسويق الرواية الحكومية والأمنية الاحتلالية، والتي مفادها أنّ هناك تقدّم بالمباحثات الجارية مع ممثّلي أهالي الشهداء، وهذا ما كنت لا أجد له قيد أنملة من المصداقية، خاصّة وأنّ والدي كان أحد ممثّلي أهالي الشهداء، وقد أعلن بشكل واضح وجليّ أنّ الصهاينة يماطلون، وأنّهم يرمون من وراء تلك المماطلة كسب الوقت حتّى يصلوا إلى أفراد (كتيبة عواصف الجثامين).

فما كان منّي سوى انتظار مرور الوقت أيضًا حتّى يحين موعد تنفيذ العملية الجهادية الخامسة، وقبل الأخيرة في سلسلة العمليات التي سبق وأن رُصِدت وأُعدّت، وأُعِدَّ ما يناسبها من بيانات تبنّي.

# المهندسة

«إنّ أوّل عوامل نجاح أي عمل جهاديّ تكمن في العنصر البشريّ، فكلّما تحلّى هذا العنصر بصفات مثالية وخُلُقيَّة، ومهارات ذاتية أو مكتسبة، كان أقرب إلى النجاح، وكلّما تخلّى عن صفات سلبية يحظر وجودها في حياته أصلًا كان أبعد عن الفشل».

إنّ المقاوم أو المقاوِمَة، والمهندس أو المهندسة الذين تمّ اصطفاؤهم ليكونوا مطارَدين للمحتلّ الصهيونيّ وقطعان المستوطنين، يعلمون علم اليقين أنّهم قد أصبحوا شهداء أحياء، شهداء نذروا حياتهم في سبيل إعلاء كلمة الله، فجاهدوا وقاوموا المحتلّ لأرضهم انطلاقًا من فهمهم لدينهم، وانطلقوا وهم يعلمون أنّ خاتمتهم تنحصر في أمور ثلاثة، وهي:

شهادة يلقون بها وجه الله تعالى وتبارك

الأسر والإعتقال

الملاحقة والمطاردة

شهادة طلبتها لكنّي لم أنلها بعد، وقيدُ أَسرٍ ذُقتُ مُرَّ طعمه فيما مضى، وقد أَقَعُ فيه مَرَّةً أخرى، لذلك فبين الشهادة والأسر قد يكتب الله لي أن أصبح ملاحقة مطاردة من قبل قوّات الأمن الصهيونية، لا مطاردة لها كما هو حالي الآن.

فأنا الآن المطارِدة لا الطريدة، أنا المهندسة المقاومة التي تعلم أنّ سِرَّ نجاح عملها المقاوم يكمن بعد توفيق الله في قدرتها على التّكيّف مع متطلّبات المرحلة، حيث تطوّرت علوم المراقبة والمتابعة، وتطوّرت بعدها قدرة العدو الأمنية والاستخبارية، لذلك كنت أدرك أنّي بحاجة إلى المزيد من الخبرة والعلم، بما في ذلك علم فنّ البقاء، وذلك حتّى أبقى حيّة طليقة وحرّة، لكي أواصل عملي الجهاديّ، لا أن أقع جثة مكبّلة في مقابر الأرقام أو في ثلّاجات الموتى تنتظر من يحرّرها من هناك.

فأنا ومنذ زمن بعيد ما عُدتُ طبيبة مداوية تعمل فوق الأرض بالعلن وتسير تحت الشمس، بل أصبحت مهندسة مقاومة تعمل تحت الأرض بالسرّ، وتسير في وسط حقل من الألغام والكمائن والمصائد والأفخاخ التي دفنت في جوف تلك الأرض وفوقها.

حاولتُ وبجدٍّ أن أتّخذ كلّ وسائل الحيطة والحذر، حتّى أتمكّن من مواصلة السير على الطريق بأكبر قدرٍ ممكن من القوة والعزم، فلعلّي أتمكّن من اجتياز مسافة طويلة فيه قبل أن أقع أسيرة أو أرتقي شهيدة، أو أصبح مطارَدَةً لا مطارِدة.

حاملة تلك الأفكار والهواجس، وجدت نفسي وقد أصبحت على أعتاب الموعد المحدّد للعملية الخامسة من عمليّات (كتيبة عواصف الجثامين)، تلك الكتيبة التي لم يكن لها قول سوى ما تضمنته البيانات التي يطلقها نبيل، ولم يكن لها فعل سوى ما تفعله عبواتي الناسفة الصغيرة والمتواضعة، بالمقارنة بعبوات وصواريخ وعمليّات الكتائب وأقوال متحدّثيها، أولئك المتحدّثون الذين طلّ علينا أحدهم ليعلن رضوخ الصهاينة لمطالب المقاومة، وليزفّ لأهالي الأسرى والمعتقلين الأحياء منهم والأموات أنّ أبناءهم عائدون لهم رغم أنف المحتلّ، وذلك عبر صفقة جديدة من صفقات تبادل الأسرى التي برعت فيها المقاومة كعادتها، وقد نصّ الاتّفاق على إطلاق سراح جثامين الشهداء من المقابر وثلّاجات الموتى، بالإضافة إلى إطلاق سراح الأسرى من السجون والمعتقلات الصهيونية البغيضة.

وقد كان موعد عمليّتي الجهادية الخامسة يسبق موعد عملية تبادل الأسرى والجثامين التي ستحدث بين المقاومة والصهاينة بأربعة أيّام، ممّا جعلني في حيرة من أمري، فهل أقوم بتنفيذ عمليّتي الجهادية قبل عمليّة تبادل الأسرى؟ وهل تنفيذي لتلك العملية سيكون عاملًا ضاغطًا على صنّاع القرار الصهاينة حتّى يُتمّوا علميّة التبادل مع المقاومة؟ أم أنّ تنفيذي لعمليّتي سيُعيق تنفيذ عمليّتهم؟

لقد حسمت ذلك الجدل الفكري عندما قرّرت السفر إلى عمّان حيث نبيل، لكي أخبره بنيّتي عدم تنفيذ العمليتين الخامسة والسادسة،

وذلك حتّى تتضح الصورة بشكل جليّ، فلعلّ المقاومة تتمكّن من تحرير جسد أخي مالك من ثلّاجة الموتى، ولعلّي أتحرّر من هذا الالتزام الذي قطعته على نفسي، والمتمثّل بتحرير جسد مالك قبل البدء بتنفيذ عمليّات جهادية عقابية للمحتلّ الصهيونيّ ردًا على مواصلة جرائمه بحقّ الشعب والأرض والشجر والحجر الفلسطيني.

إلى عمّان وصلت مسرعة بحجّة اصطحاب جدّتي من هناك والعودة بها إلى القدس، حتّى تكون في مقدّمة مستقبلي جثمان حفيدها مالك، إن صَدَقَ المحتلّ والتزم بالموعد المقرّر لبدء عملية التبادل.

وهناك وفي عمّان اتّفقت مع نبيل على تجميد عملنا الجهاديّ مؤقّتًا، فأَبدَى تفهّمه وموافقته، لكنّه فاجأني بإصراره على طلب تقدّمه لخطبتي، بعدما ننتهي من تشييع جثمان أخي مالك، فلم أَقُل سوى: صبرٌ جميل والله المستعان.

عدت مع جدّتي إلى القدس حيث الأرض المقدّسة، لكي نكون مع والدتي ووالدي وأخوتي وكلّ أقاربنا ومحبّينا ومحبّي أخي الشهيد مالك، عندما نتسلّم جثمانه الطاهر حتّى نواريه الثرى في جوف أرضنا المقدّسة، بعد أن نزفّه في عرس مهيب، عرس لا يكون إلّا للشهداء الأحياء الذين كرّمهم ربّهم ورازقهم.

انقضت ليلتنا الأخيرة، وتباعدت ساعات النهار وتباطأت الدقائق، وتوقّفت الثواني أو كادت، ونحن نرقب بدء تنفيذ عملية التبادل التي كان من المقرّر أن تطلق خلالها المقاومة سراح جنديّ صهيونيّ كانت قد أسرته في إحدى معاركها مع العدوّ الصهيونيّ على تخوم قطاع غزّة العزّة، مقابل أن يقوم الصهاينة بإطلاق سراح عدد كبير من الأسرى والشهداء.

لكن تنفيذ عملية التبادل تأخّر لعدّة ساعات، دون أن يتمّ الإعلان عن السبب الحقيقيّ والمباشر لذلك التأخير، ولكن أشارت بعض التسريبات الإعلامية والصحفية التي نشرت على العديد من المواقع الإلكترونية إلى أنّ الصهاينة يراوغون ويماطلون في محاولة منهم لابتزاز المقاومة من أجل الإبقاء على عدد من الأسرى،

الذين سبق وأن تمّ الاتّفاق على إطلاق سراحهم، وابقاؤهم في قبضة الاحتلال خلف أسوار سجونه ومعتقلاته، إلّا أنّ المقاومة الواثقة والعنيدة أصرّت وتمسّكت بما وُقِّعَ عليه، مُجبِرَةً الصهاينة على تنفيذ كافّة شروط وبنود الاتّفاق؛ فرضَخَ الصهاينة ناقضو العهود خائنو الوعود للمقاومة، التي خَبِرَت ألاعيب الصهاينة وحِيَلَهُم، وعندها.. وبعد ذلك التأخير وتلك المماطلة، انطلقت عملية التبادل، فَتَسَلَّمَ رجال المقاومة عبر طرف وسيط الأسرى الأحياء المحرّرين، وتسلّموا أيضًا الأسرى الشهداء المبجّلين، وأثناء ذلك سلّموا للوسيط وبالتزامن الجنديّ الصهيونيّ الذي كان في قبضتهم، وتحت حراسة وحدة الظلّ فائقة السرّيّة والاحتراف.

انطلقت زغاريد الفرح والانتصار في مختلف المدن والقرى الفلسطينية، خاصة في قطاع غزّة العزّة معقل المقاومة والإباء وحاضنتها الأكبر، وبدأت الحافلات التي تُقِلُّ الأسرى المحرّرين بالوصول إلى تلك القرى والمدن التي عَجَّت بالاحتفالات والمهرجانات المخصّصة للاحتفال بهؤلاء المحرّرين الأبطال، إلّا أنّ تشييع جثامين الشهداء المحرّرة لم يتمّ في ذلك اليوم، بل أُجّلت جنازاتهم إلى اليوم التالي، وذلك من أجل إتمام عملية فحص الحمض النووي (DNA) من أجل التأكّد من هويّة الشهداء، ومطابقتها مع هويّة ذويهم.

ويعود سبب ذلك إلى أنّ العديد من جثث الشهداء قد تحلّلت نتيجة مرور أعوام طويلة على دفنها في مدافن الأرقام، أمّا الجثث التي كانت قابعة داخل ثلّاجات الموتى فقد كانت في حالة انجماد كليّ نتيجة البرد القارس الذي عانته في تلك الثلّاجات لأعوام عدّة ولأسباب عدّة، وقد تطلّب زوال الانجماد عن تلك الجثامين يومين كاملين، وذلك من أجل البدء في عملية التشريح، بعد أن تمّ تشخيصها ومعرفة هويّة أشخاصها.

لقد كنت ضمن طاقم الأطبّاء الذين عملوا على تشريح تلك الجثامين، حيث تبيّن أنّ الصهاينة قد نهبوا العديد من أعضاء تلك الجثامين، بما فيهم جثمان أخي مالك الذي أظهرت عملية التشريح أنّ لصوص بني صهيون قاموا بسرقة قلبه ومقلتيه،

في انتهاك صارخ لحرمة العديد من الشهداء، وعندها قام رئيس الطاقم الطبّي بتوثيق ما جرى أثناء عملية التشريح، حتّى يتمّ رفع شكوى إلى إحدى محافل الأمم المتّحدة ومحكمة الجنايات الدولية من قبل سلطة أوسلو، لأنّها الجهة المخوّلة والقادرة على عمل ذلك بشكل قانوني ورسمي بصفتها ممثلة الشعب الفلسطيني.

حاميها حراميها! وحراميها حاميها!

دُفنت أجساد الشهداء ووريت الثرى، بعد أن زُفّت بأعراس مهيبة، ودُفن جسد أخي مالك بلا قلب، ولا مقلتين، بعد أن ألقى أحبّاؤه عليه نظرة الوداع الأخيرة فبكته من بكت، وزغردت له من زغردت! واستقبل بعد ذلك والدي وأعمامي وأخوتي المهنّئين والمعزّين، واستقبلت والدتي وجدّتي ونساء عائلتنا المهنّئات والمعزّيات، لكنّي لم أكن بينهنّ، ولا بين المهنّئات أو المعزّيات، بل إنّني انزويت بعيدة وحيدة هناك في غرفة مالك التي أصبحت الآن غرفتي منذ أن استشهد، ومنذ أن أقسمت على أن أعيد جثمانه المنهوب حتّى يشفى الجرح وتندمل الندوب، مضت الأيّام ثقيلة وصامتة وحزينة، بعد أن نكأ جرح قلب أخي المنهوب كلّ مشاعر الكره والحقد على الصهاينة لديّ، ولدى كلّ من حمل في جوف صدره قلبًا حرًا تقيًا نقيًا، فويحك يا قلبي إن هَنِئتَ بعَيش، أو لِنتَ لِصَعب، ويحك إن لم تنتفض لتنفض غبار الحزن والأسى ولتنطلق ومن جديد إلى طريق المهندسة، طريق العبوات الناسفة، عبوات الثأر والانتقام، عبوات العقاب والحساب، وويحك يا عينيّ إن لم تقدحي شررًا وتشعلي بالصهاينة نارًا تحيلهم رمادًا، إكرامًا لمقلتي مالك وإخوانه الشهداء الأبرار.

والله إنّي أودّ لو أتمنطق بحزام ناسف لكي أنسف الصهاينة وقلوبهم الحاقدة، هل أفعلها؟ أم أبدأ جولة جديدة من عمليّات التفجير المتنوعة مواصلة السير على درب المهندسة؟ أم أنّ الجدير بي هو البحث عن قلب أخي مالك، ومعرفة في أي جسد صهيونيّ نتن قد زُرع؟ ألمي شديد وغضبي أشدّ،

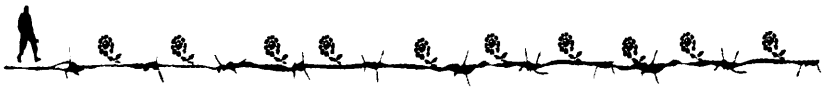

وقلبي يعتصر ألمًا على ضياع قلب أخي المنهوب، قلب أخي الذي ما عاد قلب إنسان منذ أن نُهب ليُزرع في جسد صهيونيّ حيوان، أوَليس اليهود إخوة القردة والخنازير؟ أليسوا قتلة الأنبياء والمرسلين؟ أم أنّي أخطأت في توصيف بني حيوان، الذين زوّروا التوراة ودمّروا كلّ ما جاء به الإنجيل؟!

استشهادية أنا أم طبيبة تبحث عن قلب مالك بين قلوب الشياطين؟ أم مهندسة مفجّرة مقاتلة لا تستكين ولا تلين؟ أنا المهندسة أم تلك وهذه؟

# قلب أخي

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ الحج: ٤٦

لقد بيّنت الآية الربّانيّة أنّ العقل علم، وأنّ مكمن هذا العلم هو القلب، وهنا نجد أنّ لصاحب العقل الكامل والراجح عقلين اثنين: أولهما عقل علم غريزيّ محلّه القلب، وثانيهما عقل تعلّم مكتسب محلّه الرأس.

والحقّ هنا أنّ عقل قلبي الغريزيّ يطالبني وبإلحاح بالبحث عن قلب أخي مالك، ممّا جعلني آمر عقل علمي المكتسب الكامن في رأسي بالانطلاق برحلة بحث لعلّه يتمكّن من التوصّل إلى طريقة ما توصلني إلى مكان وجود قلب أخي، ومقلتيه المنهوبتين، عصف عقل رأسي بأمر من عقل قلبي، فانطلقت مسافرة إلى عمّان، لكي أطلب من نبيل ذلك المهندس المتخصّص في علوم الحاسوب وبرمجتها البدء برحلة قرصنة من أجل البحث في جوف الحواسيب الصهيونية الكامنة في مركز زراعة الأعضاء في دولة الكيان الغاصب، عن الصهيونيّ الذي زُرِعَ داخله قلب أخي الملائكيّ، ولكي يبحث أيضًا عن العينين اللتين استولتا على مقلتي أخي بعد أن نهبت من عينيه.

استجاب نبيل النبيل إلى طلبي بلا إلحاح، وبلا محاولة إقناع حتّى، فقد كان مؤمنًا ومقتنعًا أنّ من واجبنا البحث عن قلب أخي مالك لكي يُدفن مع جسده، وذلك إكرامًا له، ومحافظة على الجسد الفلسطيني الطاهر من الدنس الصهيونيّ، ومن الدم النجس لبني صهيون، الذي سيلوّث قلب أخي إذا ما سرى فيه، لذلك بدأ رحلة إبحار حذرة في عالم الشبكة العنكبوتية الهائج، محاولًا اختراق ما وجب عليه اختراقه من حواجز وموانع وجدران حماية من أجل الوصول إلى غايته، إلّا أنّه أبلغني أنّ رحلته هذه ستحتاج وقتًا طويلًا من أجل الوصول إلى نهايتها، وقد تقف تلك الموانع والحواجز والجدران الإلكترونية حائلًا دون وصوله إلى مراده،

مؤكّدًا أنّ البحث عن قلب أخي ليس بالأمر السهل، وقد ألمح لاحتمال عدم تمكّنه من إيجاد قلب مالك الذي دُنّس بما ضُخّ فيه من دماء صهيونية، ودَّعتُ نبيل بعد أن تمّت خطبتي له بحفل عائليّ صغير وصامت، وبعد أن تمّ عقد قراننا بمهر ظاهره أمام الناس دينار واحد، وخافيه عن الناس، وظاهره لربّ الناس.. قلب أخي.

عُدتُّ إلى القدس بعد أن عزمتُ على بدء جولة جديدة من العمليّات الجهادية، ريثما يتمكّن نبيل من الوفاء بالوعد والمهر، لم أكن في هذه المرّة بحاجة إلى تبنّي العمليات الجهادية من خلال البيانات، كما كان نبيل يفعل إبّان عمليّات (كتيبة عواصف الجثامين) ويعود سبب ذلك إلى أنّني أدرك أنّ أيّ عمليّة جهادية ضدّ المحتلّ ما هي إلّا مسمارٌ يُدقُّ في نعشه، فلا يهمُّ من يدقُّ هذا المسمار، بل المهمُّ أن ننهي الاحتلال، وندفنه في جوف قبر لا مفرّ منه إلّا إلى الجحيم.

عيون فجّرتها هنا، وعيون فجّرتها هناك، هنا مات من مات، وهناك جرح من جرح، لا أَعُدُّ ولا أُحصي القتلى والجرحى الصهاينة الذين يسقطون في جحيم عمليّاتي، وذلك لأنّهم عندما احتلّوا فلسطين ارتضوا لأنفسهم أن يكونوا وقودًا وحطامًا لمعركة لا مفرّ منها إلّا إليها.

إنّهم الحطب وإنّا لهم النار واللهب
تثور النار إن خنقت بالحطب
وتحرق كلّ من للحقّ اغتصب
فكيف لا تثور ملاك على الحطب؟
لتكون له بركان اللهب

لا لن أكتب أبيات شعر ولا كلمات نثر، ولا إعلانات تبنّي، فأنا في خضمّ معركة، ولا صوت يحقّ له أن يعلو على صوت المعركة وعبوات المعركة وقنابل المعركة.

لقد تداخلت مشاعري بعضها ببعض، فما بين شعوري العامّ بوجوب عقاب الصهاينة على ما ارتكبوه من جرائم لا حصر لها ولا عدد بحق البشر والشجر والحجر الفلسطيني، هناك شعوري الخاصّ بوجوب الثأر منهم،

على ما فقدته من صديقات شهيدات، ومن أخ شهيد، وهناك شعور آخر لا أعرف له وصفًا ولا اسمًا، إنّه شعور الحاجة الملحّة للخلاص من القيد ومن النير، ومن الشباك الشائكة، ومن الجدران العنصرية العازلة التي تخنق الأنفاس وتزهق الأرواح، وتنهب القلوب في فلسطين.

وبالعودة إلى قلب أخي، فقد اتّصل بي صاحب القلب النبيل (نبيل) طالبًا منّي سرعة الحضور إلى عمّان، بحجّة استكمال متطلّبات حفل الزفاف، فانتظرت قليلًا ريثما تمكّنت من الانتهاء من تنفيذ عملية جهادية كنت قد بدأت التحضير لها منذ عدّة أسابيع، فجّرت العبوة الناسفة مفجّرة معها قلوب الصهاينة المجرمين، ثمّ انتظرت عدّة أيّام ريثما هدأت الأجواء، وعندها إلى عمّان سافرت وبنبيل التقيت.

فقال لي ما إن رأيته: لقد وجدت قلب مالك، لا، لا، لم أجد قلب مالك، لكنّي علمت أخيرًا ما قد حلّ بقلبه.

إذاً، قل لي ما الذي حلّ بقلب أخي؟ ما دُمتَ لم تتمكّن من إيجاده؟

ملاك، أما زلت تذكرين أنّك طبيبة؟

الطبيبة ملاك ماتت منذ زمن بعيد ألا تذكر؟!

إذن، من هي التي تقف أمامي؟!

المهندسة الجارحة تلك هي أنا، أمّا الطبيبة المداوية فما عاد لها مكان بيننا.

مهندسة وجارحة

نعم.. مهندسة وجارحة، تلك هي أنا، فكفاك تلعثماً، وكفاك أسئلة تعلم إجابتها علم اليقين، والآن.. قل لي ماذا حلّ بقلب مالك؟

عندما يموت الإنسان فماذا يحلّ بجسده؟

التراب.. يتحوّل الجسد إلى تراب بعد أن يأكل التراب ما في داخل الجسد.

هل تعلمين أنّ الحزم أساس العدل وسياجه الحامي؟

وهل تعلم أنّ صبري قد نفد؟ وهل تعلم أنّك إنسان شفّاف لا يجيد المراوغة والمداورة؟ نبيل ماذا حلّ بقلب أخي؟

ماذا حلّ بقلب أخيك؟ سؤال سهل إلّا أنّ الإجابة عليه صعبة، ذلك أنّ قلب الشهيد مالك قد تمّ استئصاله من جسده، وما هي إلّا ساعات قليلة مرّت على استئصاله حتّى تمّت زراعته داخل صدر أحد الصهاينة، فمكث قلب الشهيد داخل جسد ابن العبيد عدّة أيّام.

ملاك، ألم يكن اليهود عبيدًا عند فرعون؟!

أكمل يا نبيل، لقد أتعبت قلبي وأرهقت فكري.

سلامة قلبك يا حبيبة القلب.

إن كنتُ حبيبة قلبك، فقل ماذا حدث لقلب أخي بعد أن مكث عدّة أيّام في جسد ابن العبيد؟

صدّقيني فهذه النقطة تحديدًا لم أجد لها جوابًا جليًا واضحًا، إلّا أنّ النتيجة كانت أنّ قلب مالك تمّ استئصاله مرّة أخرى.

قال الأطبّاء الصهاينة في تقريرهم الطبيّ أنّ جسد ابن العبيد قد رفض قلب الشهيد، وأنا أقول أنّ قلب الشهيد هو من رفض أن يصبح أسيرًا خلف أضلع صدر ابن العبيد، ففضّل الخروج إلى الحريّة بعيدًا عن ذاك الجسد النتن الذي أرادوا له أن يُسجن فيه.

بعد ذلك ما الذي حدث؟

أنت طبيبة يا ملاك، لذلك فأنت تعلمين تمامًا ماذا حدث بعد ذلك؟

لقد أصبح رمادًا.. لقد أصبح رمادًا بعد أن حرقوه كما تحرق المخلّفات الطبيّة التي خالطها الدمّ، حرقوا قلب أخي في مكبّ النفايات الطبيّة، حرقوه وهو مكمن عقل أخي، حرقوه وكأنّه لم يكن!

ماذا يضرّ الشاة تقطيعها بعد ذبحها يا ملاك؟

أخي ليس شاة يا نبيل!

أنت تعلمين أنّي لا أقصد المعنى الحرفيّ للجملة يا ملاك، فعذرًا إن كنت قد أسأت التعبير.

مثلك لا يعتذر يا صاحب القلب النبيل، فأنا أعلم نبل مقصدك.

ملاك، مقلتا مالك قد لفظتا عينيّ الصهيونيّ اللتين زرعتا فيهما!

أكمل..

فحلّ بهما ما حلّ بقلبه!

لست على علم بحقيقة مشاعري يا نبيل في هذه الأثناء، أهي مشاعر فرح وانتصار؛ لأنّ الصهاينة لم يتمكّنوا من سجن قلب أخي ومقلتيه داخل أجساد أبناء العبيد وأخوة القردة والخنازير؟! أم هي مشاعر حزن وأسى لأنّ القلب والمقلتين قد أصبحا رمادًا تذروه الرياح؟!

ملاك، اسمعي وعي جيّدًا ما سوف أقوله لك؛ لأنّه سيكون فيصل القول ومنارة الطريق، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التغابن:١١ وقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ ﴾ النحل: ١٢٧

ملاك.. اعلمي أنّ الصبر مع الله هو الصبر على مراد الله وأحكام الله، فبغير صبر لن يستطيع المسلم أن ينال الدين أو الدنيا، وبغير صبر لن يصل إلى مراتب الكمال واليقين، وقد وجّه الإسلام أبناءه إلى الرضا بقضاء الله وقدره في كلّ ما ينجزه القضاء والقدر من أمر، وأبان للمؤمنين والمؤمنات وللمجاهدين والمجاهدات حكمة الصبر مع الله، وذلك من خلال الابتلاءات في ظروف الحياة الدنيا، التي قد تقضي بأن يكون الابتلاء بالمكاره والمؤلمات، وأنّ ما يأتي به القضاء والقدر ممّا لا كسب للإنسان فيه ولا مسؤولية عليه به، هو خير في حقيقة أمره وإن كان ظاهره مكروهًا وموجعًا، وإن كان في عُرف الناس مصيبة من المصائب.

ملاك، اعلمي أنّ مصابك جلل، لكنّني أعلم أيضًا أنّه من الواجب عليّ أن أذكّرك بأنّ الصبر مع الله قوّة خلقية من قوى العزم والإرادة، تمكّن المؤمن من ضبط نفسه لتحمّل الشدائد والمتاعب والمشقّات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الجزع والغضب، ذلك أنّه بالصبر مع الله يتمكّن المجاهد بطمأنينة وثبات من أن يضع الأشياء في مواضعها، ويتصرّف في الأمور بعقل واتّزان،

وينفّذ ما يريد من تصرّف في الزمان المناسب، وبالطريقة المناسبة الحكيمة، وعلى الوجه الصحيح، بخلاف عدم الصبر الذي يدفع إلى التسرّع والعجلة، فيضع الإنسان كائنًا من كان الأشياء والأمور في غير موضعها، فيتصرّف برعونة وتهوّر، فيخطئ في تحديد الزمان ويسيء في طريقة الردّ والتنفيذ، وربّما يكون صاحب حقّ حاله كحالك، فيغدو جانيًا أو مفسدًا، ولو أنّه اعتصم بحكمة الصبر مع الله لسلم من ذلك كلّه ونجا بإذن الله وقدره.

ملاك.. يا طبيبة غدت مهندسة، لا تنسي أنّ فضل الصبر مع الله آتٍ من كونه تعبيرًا حقيقيًا وجليًا عن قوّة الإرادة، وعن كمال العقل والقلب معًا، وهو تعبير عن الحكمة في معالجة مشكلات الحياة وابتلائها، فحكمة الصبر مع الله تتجلّى بالاتّزان العقليّ والسموّ الروحيّ عند ضبط النفس عن الخوف لدى مثيرات الخوف من النفس، حتّى لا يجبن الإنسان في المواضع التي تحسن فيها الشجاعة وتكون خيرًا، ويقبح فيها الجبن وتكون شرًا.

ملاك.. ملاك المهندسة، ملاك المقاومة والمفجّرة، ملاك الشجاعة والصابرة، كوني على يقين أنّ الشجاع إذا لم يتحلَّ بخلق الصبر مع الله، فإنّ يفقد شجاعته عند نزول الآلام التي لا يصبر على تحمّلها، فيكون شجاعًا في الأوائل، جبانًا في الأواخر، فالصبر على تحمّل المكاره التي يجرّها الإقدام عن عقل وحكمة هو الذي يحافظ على استمرار خلق الشجاعة في النفس، لذلك فلا شجاعة ولا إقدام يا ملاك إلّا بصبر مع الله.

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ال عمران: ١٤٢.

نعم.. صدق الله العظيم، يا نبيل، وصدقت أنت أيضًا، لأنّك ذكّرتني بقول الله تعالى وتبارك وبيّنت لي حكمة الصبر، ذلك السلاح الأقوى الذي يمكّن صاحبه من الظفر بالخصم والنيل منه.. كيف لا؟ والصبر يعتبر أعظم خلق نفسيّ وضع موضع الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا.

نبيل.. إعلم أنّه لولا أنّ المولى عزّ وجلّ أكرمني بالصبر ومَنَّ به عليَّ، ما كنت قد تجاوزت ابتلاء وقوعي في الأسر، وابتلاء استشهاد العديد من صديقاتي، بل وابتلاء استشهاد أخي مالك دون أن تهتزّ ثقتي بنصر الله وتمكينه، وبنصر الله وفرجه؛ صبرت فتحرّرت، وصبرت فأصبحت مهندسة فقاومت، وسأصبر على ما قد حلّ بقلب أخي، لأنّ مشوار مقاومتي للمحتلّ ما زال طويلًا، والحساب ما زال مفتوحًا، فلا تخشَ عليّ يا نبيل، فقد قسا قلبي منذ زمن بعيد، وغدا مَكْمَنًا للغضب والصبر.

عُدتُّ إلى فلسطين، وعُدتُّ إلى قلبها (القدس) حاملة في جوف قلبي الحزين سرّ نهب وسرقة الصهاينة لقلب أخي مالك ومقلتيه، ذلك السرّ الذي أخفيته كما أخفي ألم جرحي عن والدتي، حتّى لا أنكأ جرحها الحيّ، جرحها الذي لن يموت ولن يندمل ما دام الاحتلال حيًا ولم يندثر.

ذات ليلة وبعد عودتي إلى القدس سمعت والدتي وهي تتمتم وكأنّها تنتحب، فرجوتها أن ترفع صوتها حتّى أتمكّن من سماع ما تقول، فرفعت وسمعت، فإذا بها تردّد والدمع المجبول بالغضب من عينيها ينهمر:

يا آخر البسمات في شفتي.. يامهجة القلب
يافلذة الكبد الطعين سفكوا بلا ذنب دماك وإنما
هي لعنة الحقد الدفين
أفديك يا ولدي بكلّ الحاكمين الجاثمين هياكلَ فوق الشعوب لهم أيادٍ من حديد..
شرعهم: لا شرع.. لا أخلاق.. لا عهداً لدين
أفديك يا ولدي بمن خانوا.. ومن جبنوا على مرّ السنين
البائعين ديارهم
والمالئين كروشهم
والعابدين عروشهم.. والحاضرين الغائبين

يا ليتهم كانوا مكانك عند قتلك..
صاغرين.. مصفّدين
يا ليت اليهود رفعوا سلاحهم في وجهه
وتجرّعوا طعم الرصاص.. وصافحوا الوجه اللعين
من يشتهي سفك الدماء.. دماء كلّ المسلمين
ياليت كأس الرعب دارت.. في حلوق المجرمين
يا أيّها الابن الذي نثرت دماه فأنشرت أممًا من الأعراب كانوا ميّتين
سفكوا بلا ذنب دماك.. وإنّما هي لعنة الحقد الدفين
أفديك يا ولداه بالدنيا.. وما ملكت يمين
يا أجمل الأطياف في وطني.. وغصن الياسمين
يا نفحة الأقصى.. وغرس الجدود الفاتحين[1]
(مصطفى زكي بتصرّف من الكاتب بما اقتضته متطلبات الرواية)

خَفَتَ صوت والدتي، فعادت إلى التمتمة والانتحاب من جديد، ثمّ ما لبثت أن التفتت إليّ وقالت: لقد آن الأوان يا ابنتي من أجل أن ندخل الفرح إلى حياتنا من جديد، فنبيل قد انتهى من إعداد منزل الزوجية هناك في عمّان، وهذا ما أخبرتني به والدته، فهي ومنذ أيّام عدّة تلحّ عليّ من أجل تحديد موعد لحفل الزفاف، هيّا يا ملاك، قومي وهاتفي نبيل من أجل أن نحدّد موعد الزّفاف، فكفانا يا ابنتي حزنًا وألما وانتحابًا.

# الإرهابية

«لقد أطلق الصهاينة عَلَيَّ اسم ووصف (الإرهابية القاتلة)، وهذا هو ديدن الاحتلال في توصيفه للمقاومين، من أجل قلب الحقائق والمفاهيم، وهو أيضًا ديدن سلطة أوسلو، تلك السلطة التي وصفتني بداية بالمجرمة والخارجة على القانون، ثمّ ما لبثت وأن أسمتني ووصفتني بالإرهابية القاتلة»!!

جميلة هي مدينة القدس الأسيرة، إلّا أنّني ما عدت قادرة على رؤية هذا الجمال، فمنذ أن تمّ احتلالها في عام ١٩٦٧م وصولًا ليومنا هذا، والصهاينة المجرمون يحرصون على خنقها وتشويهها وصولًا إلى تهويدها، وقد نجحوا في ذلك إلى حدٍّ كبير، فقد أتخموا مدينة القدس وضواحيها بالمستوطنات والمستوطنين الحاقدين العابثين، وبالجنود الفئران المستأسدين، وبالقنّاصة.. نعم بالقنّاصة الذين اعتلوا أسوار القدس وبناياتها المرتفعة وكأنّنا في ساحة حرب، بل وكأنّ المدينة قد أُعيد احتلالها من جديد؛ وكلّ ذلك خوفًا من المنتفضين والمنتفضات في هذه الانتفاضة المباركة، والتي سبق وأن أسميتها انتفاضة حرائر القدس.

في فلسطين بشكل عام، وفي القدس بشكل خاصّ، يسعى الصهاينة إلى إهانة كلّ ما يَمُتُّ للإسلام والمسلمين بِصلة، بشتّى الأشكال والوسائل، وقد تعرّضتُ حالي كحال أهل القدس إلى العديد من أنواع الإهانات والاستفزازات التي جعلت من كلّ فلسطينيّ وفلسطينية، وكأنّهم قنابل موقوتة، قنابل لا يعلم أحد متى تنفجر وأين؟

نُزِعَ عن رأسي غطاءه وحجابي ذات مرّة! وأُهنتُ مرّة أخرى عندما قام الصهاينة بشتم سيّدنا محمّد تحت سمعي وأمام بصري، ومُنعتُ لمرّات عدّة من الدخول إلى باحات القدس للرباط، أو إلى المسجد الأقصى للصلاة، وهذا حالي وحال قاطني مدينة القدس، رجالًا كانوا أو نساءً، ورغم ذلك كلّه فما زلت أحبّ القدس وأعشقها، لأنّها مهد الرسالات، وأرض الرباط التي بارك الله بها وبما حولها، فالقدس قدري وأنا قدرها.

نزعوا عن رأسي الحجاب فنزعت رؤوسهم بعبوة ناسفة؛ لأنّي أملك القدرة على صناعة العبوات، أمّا تلك الفتاة وهذه فقد امتشقن الخناجر والسكاكين، ليطعنَّ بها الصهاينة الذين اعتدوا على كرامتهنَّ ودينهنَّ ومدينتهنَّ.

سَبُّوا رسول الله وشتموه، فأقسمت بالله لأفجّرنّهم بعبوة زرعتها هناك، هناك حيث قامت مجاهدة ثائرة منتفضة بطعن صهيونيّ استمرأ سبَّ الرسولﷺ وشتمه.

منعوني من الدخول إلى المسجد الأقصى للصلاة والمرابطة، فجعلتُهُم يفرّون ولا يقتربون من حائط البراق، الذي أسموه «حائط المبكى» عندما فجّرتُ وفجّرتُ، وعندما طَعَنَتْ حُرَّةٌ وَطَعَنَ حُرٌّ هناك، وعندما أُطلقَت النار من بندقيّة أبيّة انتفضت كرامة للقدس والأقصى عندما امتشقها فلسطينيّ وفلسطينيّة.

فالفلسطينية حالها كحال الفلسطينيّ.. لا تقبل الإهانة أبدًا؛ لأنّها عزيزة النفس كريمة المنشأ طاهرة المنبت، حالها كحال ابنة الشام والفرات ودجلة، حالها كحال ابنة الخليج والنيل والمغرب العربي.

إنّ المحتلّين الصهاينة لا ينفكّون يخلقون لنا الأسباب التي تجعل كلّ فلسطينيّ وعربيّ ومسلم يحقدون عليهم حقدًا مَرَضِيًا لا يمكن الشفاء منه إلّا بزوال الاحتلال والمحتلّين.

عندما قلتُ الفلسطينيَّ.. فأنا أقصد الفلسطينيَّ الحرّ الأبيَّ الذي لم يتلوّث بخدمة الاحتلال وحماية أمنه، وأقصد بالعربيّ ذلك الأصيل الذي رضع العزّة والأنفة من عاداتنا وتراثنا العربي المتجذّر، وأقصد بالمسلم ذلك الذي عرف دينه فآمن بالله ورسوله، فَوالَى من يواليهم وعادَى من يعاديهم.

لم أعبأ لوصف الصهاينة أو الأوسلويين لي بالإرهابية، فالاحتلال ومن يخدمه وجهان لعملة واحدة صُكَت في بوتقة الإجرام والإرهاب، فكلاهما مجرم وإرهابيّ، فالصهاينة يحتلّون أرضنا الفلسطينية ويدنّسون مقدّساتنا الإسلامية، ويهينون كرامتنا العربية بقوّة السلاح والإرهاب والتقتيل والإجرام..

ذلك الإجرام الذي أصبح وصفًا لصيقًا بخدم أمن الاحتلال، أولئك الخدم الذين غدت قوتهم أداة قمع بحقّ الفلسطينيّين بعد أن غدرت بهم وخانتهم.

فمنذ أن حلّ غراب الاحتلال الصهيوني على الأرض المباركة حلّ معه العملاء والمرتزقة، عبر ظاهرة فردية كان أصحابها يمارسونها بالخفاء، وتحت جنح الظلام، إلّا أنّ هذه الظاهرة الفردية ما لبثت وأن أصبحت منهج حياة، وقناعة راسخة، وعقيدة متينة عند من صَنَعَهُم الاحتلال، ليكونوا جلّادين للشعب الفلسطينيّ الرازح تحت نَير الاحتلال الصهيونيّ وسياط جلّاديه.

فأبناء أوسلو أصبحوا أبناء عقيدة غرقدية، حالهم كحال شجر الغرقد حامي بني صهيون، وقد لمستُ ذلك وعايشتُهُ عندما لوحِقتُ وطوردتُّ من قِبَلِهم هناك في مناطق حكم سلطة أوسلو وأجهزتها الأمنية.

حدث ذلك عندما كشف الصهاينة أمري، حينما تخلّيتُ قليلًا عن حَذَري، فأدّى ذلك إلى وقوعي بالمحظور، حين اشتبه بي أحد أصحاب متاجر بيع الأسمدة الكيماوية المستعملة في الزراعة، فتلك الأسمدة ذات استعمال مزدوج، ففي الوضع الطبيعي هي تستخدم من أجل تسميد التربة الزراعية، أمّا عندما يتمّ إدخالها كعنصر فاعل في عملية تصنيع المواد المتفجّرة، فإنّها تصبح مادّة خطرة يُحظَرُ بيعها وتداولها. وهذا ما اشتبه به صاحب المتجر الذي سبق لي وأن اشتريت منه قبل عدّة أشهر بضع كيلوغرامات بحجّة استعمالها من أجل تسميد التربة التي أزرع بها نباتات وأشجار حديقة منزلي المزعوم.

فعلى الرغم من عمليّة التّمويه التي اعتدتُ عليها قبل توجّهي لشراء أيٍّ من المواد التي أستعملها في عملي الجهادي، بحيث أقوم على سبيل المثال بارتداء باروكة شعر مستعار فوق حجابي على أن يتمّ تغيير لون هذا الشعر بين المرّة والأخرى، تمامًا مثلما أقوم بتغيير لون عينيّ الخضراوين عبر استعمالي لعدسات لاصقة متعدّدة الألوان، إلّا أنّ عمليّة التمويه تلك قد تخدع الأناس العاديّين، لكنّها لا تخدع أجهزة الأمن التي تمتلك الأدوات وبرامج الحاسوب،

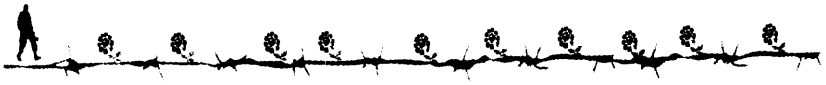

والأرشيف الذي يمكّنها من تحديد هويّة الشخص المشتبه به، وبما أنّني كنت فيما مضى أسيرة في سجون الصهاينة، فإنّهم يمتلكون سجلًّ التشخيص الجنائيَّ الخاصَّ بي، وهو يحتوي على بصمات أصابعي، وعلى عيّنة من الحمض النوويّ (DNA) العائد لي، وعلى صور شخصيّة لوجهي؛ لذلك لم يكن صعبًا على أجهزة الأمن الصهيونيّة معرفة هويّتي الحقيقية، عندما حدثت مشادّة كلامية بيني وبين صاحب متجر بيع الأسمدة الكيماوية، الذي ارتاب بي فطلب منّي إظهار بطاقتي الشخصية بحجّة حاجته لتدوين ما فيها من معلومات، من أجل عمل فاتورة بيع قانونية نظامية حتّى لا يقع في مشاكل مع مصلحة الضرائب الإسرائيلية، وحين رفضتُ بادرني بالقول أنّه يعلم سبب رفضي لطلبه، وهو أنّني سأستخدم الأسمدة الكيماوية التي أردتُ شراءها من متجره على وجه غير قانونيّ، ملمّحًا أنّ النوع الذي أردتُ شراءه ذو استعمال مزدوج.

وهنا أخبرته بعدم رغبتي في إتمام عمليّة الشراء، وهممت بمغادرة المتجر فبدأ بالصراخ والشتم وتوجيه الاتّهام المباشر لي على ما قد أفعله بتلك الأسمدة، وعندها اندفعت مسرعة خائفة خارج المتجر متدارية بين جموع المشاة بعيدًا عن الأنظار، حيث ركبت في إحدى سيّارات الأجرة، تاركة سيّارتي جاثمة في موقف السيارات القريب من المتجر، وقد أوصلتني سيّارة الأجرة إلى مكان قريب من عيادتي، حيث عاودت الصعود في سيّارة أجرة أخرى لكي توصلني إلى عيادتي، وما إن ركبت في المصعد حتّى قمت بنزع باروكة الشعر المستعار واضعة إيّاها داخل حقيبتي، أمّا العدسات اللاصقة التي كنت أضعها على عينيّ فتكفّلت نظّارتي الشمسية بإخفائها ريثما أدخل إلى مكتبي في العيادة.

هناك في المكتب نزعتُ العدسات اللاصقة لكنّني لم أستطع انتزاع حالة الخوف التي اجتاحتني، فقد بدأت الأفكار تتقاذفني وكأنّها أمواج عاتية تعبث بمركبٍ شراعيٍّ صغير الحجم والقدرة، فهل أبلغ صاحب المتجر اليهوديّ أجهزة الأمن الصهيونية أم ماذا؟

وهل تمكّن الصهاينة من التعرّف على شخصيّتي؟ وهل رفعوا بصمات أصابعي التي تركتها على كيس السماد الكيماويّ، أم أنّ كاميرات المراقبة الموجودة في المتجر التقطت لي صورًا واضحة تمكّن الصهاينة من التّعرف عليَّ؟ وهل يعني هذا أنّني أصبحت طريدة ومطلوبة من قبل الأجهزة الأمنية الصهيونية؟ ماذا سيحلُّ بي؟ وهل سينجح الصهاينة في عمليّة اعتقالي والزجِّ بي أسيرةً خلف أسوار المعتقل؟ أم أنّهم سيطلقون وابلًا من الرصاص القاتل نحوي منفّذينَ بي حكمًا إرهابيًا بالإعدام الميداني؟

حالي كحال الذين يُستشهدون دون محاكمات، هل أعود منتظرة حكم القاضي والجلّاد الصهيونيّ؟ أين سأذهب؟ وأين سأختبئ؟ الحلّ الأمثل هو أن أسارع في مغادرة الأراضي الفلسطينية المحتلّة فارّة إلى الأردن.

وهل تفرُّ من الميدان من كانت تصارع من أجل الدخول إلى فلسطين للقتال؟ بل هل يحقُّ لمن أصبحت مهندسة مقاومة أن تهرب كالجبناء؟ أم أنّ العقل والحكمة يوجبان عليَّ ترك القدس وفلسطين لأنجو أوّلًا، ولكي أعاود قتال الصهاينة من خلف الحدود ثانيًا؟

لستُ أدري.. هل الفرار شجاعةٌ والمواجهة جبنٌ؟! أم أنّ الشجاعة هي المواجهةُ والفرار هو الجُبنُ؟ ويحَكِ يا ملاك، أين الإعداد والاستعداد؟ وأين ما أعددته لمثل هذا اليوم؟ ألم أُعدَّ لأكون مطاردة لا طريدة؟ أم أنَّ الصدمة أفقدتني التوازن؟ سحقًا لعواصف الأفكار الغبيّة، وأهلًا بالتدبير والتفكير السليم الرزين.

سيّارتي! سوف أتّصل بأحمد ابن أخي الأكبر أسعد لكي يحضرها إليّ هنا في العيادة بعد أن يأخذ منّي المفتاح، لا، لا، الأفضل أن يوقفها أمام منزل والدي، فلست بحاجة لقيادة سيّارة سيطاردها الاحتلال، إذا ما طاردني لأنّها مسجّلة باسمي.

المال! أريد الكثير من المال النقديّ، فأنا لا أعلم ماذا تخبّئ لي الأيّام القادمة؟ السلاح! المتفجّرات! مكان الاختفاء من أجل مواصلة العمل الجهاديّ الذي نذرت نفسي له! كنت أعلم أنّ قلب المؤمن دليله؛

لذلك فقد استمعت إلى صوت قلبي إلى جانب صوت عقلي اللذين أكّدا لي أنّني ومنذ هذه اللحظة قد غدوتُ عند الاحتلال الصهيونيِّ وعند المنحلِّ الأوسلويّ إرهابية طريدة.

إرهابية مطلوب رأسها مكبّلًا بالحديد أو مضرّجًا بالدماء، فهذا حال مجاهدي ومهندسي المقاومة، الذين اختاروا امتشاق البندقية تلبية لنداء الجهاد المقدّس، جهاد عزّة الإسلام ورفعته وذروة سنامه، جهاد النصر أو الشهادة.

لكن كيف لفتاة أن تصبح بين ليلة وضحاها مطارَدَة، فتاة لا تستطيع الاختباء في الكهوف والجبال، فتاة لم تَخبَر مسالك الوديان ولا عيشة البراري.. كيف؟ سؤال وجب عليّ الإجابة عليه قبل أن أنطلق وأمضي نحو مجهول المطارَدَة، ونحو ما يخبّئُهُ لي قادم الأيّام، ولله درّ من قال:

لا تولّوا عن الجهاد ففيه ... عزمة الحقّ والسبيل الوحيد
إنّ معنى الجهاد نهج ... لا ارتجال فيه ولا تبديد
إنّ معنى الجهاد رصّ صفوف ... وبناء على الهدى مشدود
وأعدّوا بما استطعتم رباطًا ... من قوى ترهب العدا وتسود
إن تولّوا يستبدل الله قومًا ... غيركم لا تضيع فيهم عهود

# الاستشهادية

«لقد مارس المسلمون العمليّات الاستشهادية بذلًا للنفس وطلبًا للشهادة في سبيل الله، دون أن ترتبط هذه العمليّات بحالة اليأس والإحباط، ولذا فإنّ ربط العمليّات الاستشهادية التي تجري اليوم في فلسطين باليأس والإحباط هو أمر مردود، يكذّبه تدافع المجاهدين والمجاهدات في فلسطين على الاستشهاد، ومشاركة الكثير من الشباب والشابّات من ذوي الثقافات والمستويات الاجتماعية، دون أن يكون للفقر أو الإحباط دور في دفعهم للاستشهاد.»

قمت بإلقاء هاتفي النقّال في إحدى فتحات الصرف الصحّي، بعد أن غادرت عيادتي الطبيّة، وَوَرشَتي الهندسية، متّجهة نحو أقرب فرع للبنك الذي أتعامل معه، وقمت بسحب كلّ المال الذي كنت قد أودعته فيه، وبعد ذلك خرجت من القدس مودّعةً إيّاها دامعة على فراقها إلى مدينة رام الله التي ما إن وصلتها حتّى انقبض قلبي؛ ذلك لكونها غُدِرَت فَغَدَت مكبَّ نفايات أوسلو، فهي تحتوي على كافة مقرّات أجهزة الحكم والأمن الأوسلويّ، ففي مدينة رام الله يشتمّ الناس ما يزكم أنوفهم من مقرّات أجهزة الأمن الأوسلويّة، فهذا مقرّ لجهاز الأمن الوقائي، وذلك مقرّ لجهاز المخابرات والاستخبارات و.. وما بين هذا وذاك، نجد مقرّ الرئيس وحرسه، فرام الله مقرُّ حكم الرئيس، حيث يتربّع وسط كلّ المقرّات الأوسلوية.

غادرت مسرعة نحو القرية التي تقطن فيها الأسيرة المحرّرة أم كوثر، وهي أرملة أحد أبطال وشهداء انتفاضة الأقصى، وقد تعرّفتُ على أمّ كوثر عندما سجنّا معًا في انتفاضة حرائر القدس، أنا بتهمة التحريض على الاحتلال عندما عدتُّ من عمان، وهي بتهمة جمع التبرّعات المالية لصالح المقاومة.

وقد سبق لي زيارتها في منزلها الريفي المتواضع عندما تحرّرت، وذلك لأنّي ما زلت أحفظ لها أنّها كانت بمثابة الأمّ لي أثناء وجودي بالأسر،

لذلك كانت أمّ كوثر ملاذي الأكثر أمانًا وخياري الأوّل، ريثما أتمكّن من الوصول بشكل آمن إلى منزل الأسيرة المحرّرة جنان، الأخت والصديقة التي أمضت في الأسر أحدعشر عامًا عقابًا لها على مساعدتها لزوجها المهندس المقاوم، الذي قدّر الله له ألّا يمضي أعوام حكم المؤبّد الذي حَكَمَ عليه به الصهاينة خلف أسوار الأسر، لأنّه تحرّر رغم أنف الاحتلال خلال صفقة تبادل تمّت بين المقاومة الآسرة والمحتلّ الأسير.

إلّا أنّ زوجها المهندس المقاوم ما لبث وأن لقي وجه ربّه الكريم جرّاء التعذيب الوحشي واللاإنساني الذي تعرّض له في إحدى مسالخ أجهزة العمالة والخيانة للمحتل، وذلك بحجّة اتّهامه بأنّه يفكّر في معاودة السير على طريق العيّاش، طريق العمليّات الجهادية من جديد.

وبالعودة إلى أمّ كوثر التي طلبتُ منها السماح لي بالمكوث في منزلها لعدّة أيّام، على أن يكون تواجدي هنا سرّيًا، فلا أريد أن يعلم أحد بوجودي في قريتها ومنزلها، وقد قالت لي عندما سمعت طلبي ما يأتي: «ابنتي ملاك، إنّ المجتمع الذي أعيش فيه مجتمع قرويّ، الكلّ فيه يعرف الكلّ، وقد رآك العشرات من أهل القرية أثناء قدومك عندي، لذلك إذا ما أردتُ المكوث عندي بشكل سرّيّ فعليك العودة إلى مدينة رام الله على الفور، وذلك حتّى يراك أهل القرية وأنت تغادرين منزلي، تحت حجّة أنّك أخطأت العنوان أو أيّ حجّة أخرى، وهناك في رام الله ارتدي هذه العباءة السوداء والنقاب الذي معها في أيٍّ من مصاعد المدينة أو دورات مياهها العامّة، وبعد ذلك توجّهي يا ابنتي إلى مختبر الفحوص الطبية الذي تعمل فيه ابنتي كوثر، وهو يقع كما تعلمين في المجمّع الطبيّ العامّ، وعندها وتحت ستار النقاب الذي ترتدينه قومي بإعطائها هذه الرسالة، واتركي الباقي على الله ثم عليها، لا تقلقي ولا تخشي شيئًا يا ابنتي ملاك لأنّك سوف تكونين بين يدّي ابنتي كوثر التي ستحرص على سلامتك وأمنك أشدّ الحرص».

ودّعتُ أمّ كوثر بعد أن أعطتني العباءة والنقاب والرسالة، وعدتُ إلى رام الله حيث مكمن وجحر الأفعى، وهناك التقيت بكوثر،

بعد أن قمت بارتداء العباءة والنقاب أثناء صعودي في المصعد الموجود في المجمّع الطبّيّ العام، وقمت بإعطائها رسالة والدتها، قرأت كوثر الرسالة بتمعّن واهتمام، وعندها طلبت منّي مغادرة مكان عملها في المختبر على أن أعود بعد نحو ساعتين، وذلك حتّى يكون موعد مغادرتها لعملها وعودتها إلى منزلها في القرية، حيث كانت تقطن إلى جوار منزل والدتها.

تجوّلتُ في جحر الأفعى، فشاهدت وكالعادة مشاهد الفقر المدقع، والثراء الفاحش، ومشاهد الدوابّ التي تجرّ العربات والسيارات الفارهة، ثمّ عدتُ إلى المجمّع الطبيّ العامّ حيث كانت كوثر تنتظرني بسيارتها المتهالكة عند ناحية بنائه، وعندها طلبت منّي الصعود إلى الكرسي الخلفي للسيارة، مع خفض رأسي والتداري حتّى لا يراني أحد، ثمّ انطلقت عائدة إلى قريتها دون أن تتحدّث معي مطلقًا طوال الطريق، وقبل أن تصل إلى مدخل القرية طلبت منّي الترجّل والصعود إلى الصندوق الخلفي لسيّارتها، ريثما نصل إلى منزل والدتها، حيث ركنت سيّارتها تحت ظلال عريشة العنب بعد أن اجتازت بوّابة السور الخارجيّ للمنزل، ترجّلتُ من الصندوق بعد أن فتحته كوثر، فكانت أم كوثر بانتظاري ممسكةً بقنّينة ماء بارد، فشربتُ وارتويتُ، وفي جوف منزل أم كوثر تداريتُ، بعد أن ركبت كوثر سيّارتها متّجهة إلى منزلها، حيث زوجها وأولادها بالانتظار.

ملاك.. منزلي أصبح الآن ملاذك فامكثي فيه قدر ما تشائين، فقد أعددت لك المكمن الآمن والغرفة السريّة التي كان زوجي أبو كوثر رحمه الله يمكث داخلها إذا ما أراد الاختفاء والتداري عن أعين الاحتلال والسلطة، حينما كان مطاردًا من قبلهم إبّان انتفاضة الأقصى السابقة.

شكرًا يا أم كوثر، لكن اعلمي أنّي لن أمكث هنا طويلًا، فأنا أريد الوصول إلى منزل جنان، وذلك لأنّي بحاجة ماسّة لمساعدتها لي.

حسنًا يا ابنتي، لك ما تشائين، لكن لا تتعجّلي، فالوصول إلى منزل جنان بشكل خفيّ وآمن ليس بالأمر السهل، فمنذ أن استشهد زوجها على يد عملاء الاحتلال، ومنزلها يتعرّض للمداهمة بين الفينة والأخرى، هذا أوّلًا،

أمّا ثانيًا فإنّ منزل جنان يغصّ بالساكنين فيه، فهناك والدتها وأبو زوجها، وأبناء وبنات جنان، لذلك أعيدي التفكير جيّدًا في موضوع الذهاب إلى رؤية جنان والالتقاء بها.

ملاك.. دعيني الآن أُعِدُّ لك الطعام، فأنا أجزم أنّك ومنذ الصباح لم تتناولي أيًا منه.

هذا صحيح فانشغالي أذهبَ عنّي التفكير في الطعام، لذلك هيّا يا أم كوثر لنحضّر الطعام معًا كما كنّا نفعل أيّام الأسر والاعتقال.

أعددنا ما قسمه الله لنا من طعام ثم بدأنا بتناوله، وأثناء ذلك عملتُ على تقليب محطّات التلفاز الواحدة تلو الأخرى، باحثة عن أيّ خبر يتعلّق بي لكنّني لم أجد، ويا ليت أمّ كوثر كانت تمتلك جهاز حاسوب، أو هاتفًا ذكيًا، لكنت تجوّلت بين المواقع الإلكترونية الإخبارية، لعلّي أجد خبرًا مفيدًا.

آويت إلى فراش نومي، ذلك النوم الذي جافاني لكثرة ما في رأسي من أفكار وتساؤلات، فيا هل ترى استلم ابن أخي أحمد سلسلة المفاتيح من الممرضة وقام بإحضار سيّارتي وإغلاق عيادتي، وهل أعطى والدتي الرسالة التي كتبتها لها؟ وهل اطمأنّت أمّي لما قَرَأته من كلمات؟ أم أنّها الآن تغلي وكأنّها بركان من القلق والحيرة.

أمّاه أعجز عن الشرح والإطالة، لكنّي سأوجز وأقول أنّني سأتدارى وأختفي عن الأنظار لعدّة أيّام، وذلك لأنّني أعتقد أنّ الصهاينة يطاردونني ويريدون الوصول إليّ والنيل منّي، لا تقلقي فأنا كامنة عند إحدى صديقاتي المخلصات، أمّاه احرصي على ألّا يعلم أحد بغيابي، واعلمي أنّي ما عدتُ قادرة على التواصل معك هاتفيًا، وذلك حتّى لا يتمكّن الصهاينة من تحديد مكان تواجدي، لذلك فإنّ تواصلي معك سيكون عبر الرسائل المقروءة أو الشفوية، أحبّك جدًا جدًا يا أمّ الدكتورة، ولا تخشي شيئًا.. فريثما أتأكّد أنّني لست مُطاردة من قبل قوّات الاحتلال الأمنية، فسوف أعود أدراجي إلى المنزل، اختلقي لي أعذار الغياب، ولا تجعلي أحدًا ينتبه لغيابي عن المنزل والعيادة، أمّي حطّمي جهاز حاسوبي المحمول وألقي به بعد ذلك في حاوية القمامة، وقبل ذلك أتلفي هذه الرسالة بعد أن تقرئيها جيدًا.

ابنتك المحبّة ملاك

ملاك المهندسة.. لا ملاك الطبيبة

ملاك المهندسة.. لا ملاك الطبيبة

هل كانت هذه الكلمات التي كتبتها لوالدتي على عجل كافية أم أنّها أعلنت حالة الاستنفار بعد أن جُنّ جنونها وأخبرت والدي وأخوتي بما عَلِمَت؟ لست أدري، وليتني أدري.

لا، لا أنا واثقة بحكمة أمّي، ومتأكّدة أنّها سوف تتصرّف كما طلبت منها تمامًا، فهي تثق بي وبعقلي جيّدًا.

مَرَّ الوقت سريعًا وأنا أفكّر، وها هو صوت المؤذّن يصلني بشكل خافت معلنًا أنّ وقت صلاة الفجر قد حان، وها هي أمّ كوثر تطرق باب الغرفة التي أكمن فيها لكي نصلّي الفجر معًا، صلّينا ودعونا الله وبعد ذلك قرأنا سورة الأنفال، كما كنّا نفعل معًا أيّام الأسر، ثمّ هَمَست لي وهي تغادرني لتبدأ يومها: «ملاك.. لا تغادري مكمنك هذا حتّى أعود إليه أنا بعد أن أتأكّد أنّ نزولي عندك آمن، ذلك أنّ جاراتي تعوّدن على شرب القهوة عندي كلّ صباح».

ودّعتُها محرّكة رأسي بالإجابة، لأستقبل النوم الذي غَلَبَني من شِدَّة النُّعاس، نمتُ نوم القلقة المتوجّسة الخائفة من المجهول، واستيقظتُ استيقاظ الهادئة الثابتة الواثقة من صوابيّة التوجّه والطريق، نظرتُ إلى ساعتي فإذا بها قد اقتربت من الثانية ظهرًا، فقمتُ لأتوضّأ كي أصلّي الظهر، فإذا بأمّ كوثر تحضر حاملة معها طعام الغداء، واضعة إيّاه إلى جوار أطباق احتوت على طعام الإفطار الذي لا أعلم متى حضّرته وأحضرته، لم تطرق الباب هذه المرّة لأنّها لم تُرِد إزعاجي، لا بالطرق على الباب ولا بالخبر الذي أصبح يتداول على كلّ لسان.

صباح الخير يا أمّ كوثر

صباح الخير يا ابنتي، هل نمتِ جيّدًا؟ وهل ناسبتك ملابس ابنتي كوثر؟ بعد أن تعود كوثر من عملها، سوف تحضر معها العديد من الملابس الجديدة لأنّ إقامتك عندنا سوف تطول.

أمّا النوم.. فقد عوّضتُ أرَقَ الأمس بنوم عميق بعد صلاة الفجر، أمّا ملابس كوثر فهي مناسبة جدًا، فشكرًا لكِ ولها، ولا داعي لأن تشتري لي كوثر ملابس جديدة، فإقامتي هنا لن تطول، لكن دعينا من هذا كلّه فرائحة الفول الأخضر المطبوخ مع اللبن أجرت ريقي من شدّة طيبها، فهيّا لنأكل قبل أن يأتي زمن لا أجد فيه سوى علب السردين والفول المدمّس.

سمّي باسم الله يا ابنتي ولا تقلقي، فما دمت عندي فلن يكون هناك سردين ولا فول معلّب بإذن الله، وإنّما ستتناولين ما لذّ وطاب من الحلوى.

هل هناك أخبار يا أمّ كوثر؟

الأخبار كثيرة، وأنواعها أكثر، فهناك الأخبار الفنية، والأخبار الاقتصادية، والأخبار السياسية، والأخبار الأمنية، وهناك ما هو أهمُّ ممّا سبق من أخبار، إنّها أخبار الدجاج الذي أعددتُهُ لك مع الزعتر البرّيّ.. فما رأيك بطعمه يا ملاك؟

لست أدري أَهُوَ أطيب، أم أنّ الفول المطبوخ باللبن أطيب، أم أنّ الأرزّ المزدان بالشعيرية أطيب من هذا وذاك؟ فجزاك الله خيرًا يا أمّ كوثر على ما صنعت يداك.

بل جزاك أنت الله خيرًا يا ابنتي على ما صنعته يداك؟

في تلك الأثناء أمسَكَت أمّ كوثر يداي مبعدة إياهما عن الطعام، ومقرّبة إيّاهما إلى شفاهها، وأخذت تقبّلهما، وأنا أحاول جاهدة سحبهما من بين يديها، إلّا أنّها واصلت تقبيل يديَّ والدموع تجري من عينيها جريان ندى الصباح على الورد.

ما بالك يا أمّ كوثر تبكين؟ ما بالك يداي تقبّلين؟

أبكي فرحًا يا ملاك وسرورًا، لأنّ الله شرّفني باستضافتك عندي، أمّا يداك اللتان قبّلتُ فعلى كلّ فلسطينيّ وفلسطينيّة أن يقبّلوهما، أليستا يدي المهندسة؟

عن أيّ مهندسة تتحدّثين يا أمّ كوثر؟

عن المهندسة الأمنية التي تطاردها قوّات الأمن الصهيونية، والمهندسة الاستشهادية المفترضة التي تبحث عنها تلك القوّات منذ فجر اليوم، ملاك يا ابنتي.. إنّ صورك تملأ نشرات الأخبار، وتلك الجمل أيضًا يردّدها قارؤو وقارئات نشرات الأخبار في المحطّات الصهيونية فكرًا والعبريّة لغةً،

والمحطّات الصهيونية فكرًا والعربية والأعرابية لغة! أمّا المحطّات الحرّة المقاومة، فإنّها تردّد يا ملاك جملًا أخرى غير تلك، كجملة ولقب مهندسة فلسطين الحرّة، ومهندسة المقاومة الباسلة، ومهندسة العمليّات الموجعة، وهناك محطّات ما فتئت تردّد لقب مهندسة (كتيبة عواصف الجثامين)، ليتني أستطيع اصطحابك للطابق العلوي حيث التلفاز، لكي تشاهدي بعينيك، وتسمعي بأذنيك عمّا أتحدّث، يا من درستِ الطبَّ في الكليّة لتتخرّج مهندسة في ساحات القدس، ملاك المهندسة المفجّرة، لا الطبيبة المداوية، سأصعد يا مهندسة، لكي أحضر المذياع حتّى تسمعي ما لا يمكنك مشاهدته، صحيح لقد وصفتك إحدى المذيعات المقاومات واسمها فاطمة القاضي بأنّك مهندسة حرائر القدس.

تَرَكَت أمّ كوثر مكان جلوسها على عَجَل لتحضر المذياع، فما كان منّي سوى مواصلة تناول الطعام بِنَهَم، فلم يَعُد هناك ما أخشى انكشافه؛ فقد كُشفَ المستور، تأخّرت أم كوثر كثيرًا بالعودة، ولست أدري ما السبب الذي حال دون عودتها، إلّا أنّني وجدتُ غيابها فرصة حسنة لكي أعيد حساباتي من جديد، أو بمعنى آخر أن أبدأ بتنفيذ ما كنت قد عزمت عليه منذ البداية، والمتمثّل بإعداد نفسي لأكون استشهادية لا ملاحَقَة طريدة، فليس من السهل لفتاة مثلي أن تصبح مطارَدَة أو حتّى أسيرة، ما دام هناك خيار آخر أقوى وأفضل، فالعمليات الاستشهادية أثبتت نجاعتها في الإثخان في العدوّ الصهيونيّ المجرم، أثبتت أيضًا أنّها من أَشَدّ وسائل المقاومة إيلامًا للمحتلّين القتلة.

فقد مارس المسلمون العمليات الاستشهادية طلبًا للشهادة وبذلًا للنفس في سبيل الله دون أن ترتبط هذه العمليات بحالة اليأس والإحباط، ولذا فإنّ ربط العمليات الاستشهادية التي تجري اليوم في فلسطين باليأس والإحباط هو أمر مردود، يكذّبه تدافع المجاهدين والمجاهدات في فلسطين على الاستشهاد، ومشاركة الكثير من الشباب والشابّات من ذوي الثقافات والمستويات الاجتماعية دون أن يكون للفقر أو الإحباط أو الجهل دور في دفعهم للاستشهاد.

وما دمت قد عزمتُ على أن أكون استشهادية، فيجب عليّ البدء بالحصول على المواد اللازمة من أجل تنفيذ عملية التفجير الاستشهادية، وهذا يتطلّب الوصول إلى جنان، فهي وحدها من تستطيع مساعدتي في ذلك دون أن ينكشف أمرها وأمري قبل تنفيذ مرادي.

يعود سبب اختياري لجنان لكونها مقاومة متمرّسة في العمل الجهاديّ، فهي بذاتها مجاهدة، حيث كانت أثناء دراستها الجامعية إحدى أنشط الطالبات المنخرطات في صفوف الكتلة الإسلامية، وهو الذراع الطلّابي لحركة المقاومة الإسلامية حماس، فقد كانت جنان تقود وتشارك في مختلف فعاليات الحركة والكتلة مثل التظاهر والاعتصام وزيارة أهالي الشهداء والأسرى، أي أنّها كانت من المجاهدات المنخرطات بكلّ الفعاليّات المناهضة للاحتلال الصهيونيّ من جهة، وللانحلال الأوسلويّ من جهة أخرى، حالها كحال زوجها وابن عمّها المهندس القسّاميّ الذي تزوّجته بعد تخرّجها وتخرّجه من الجامعة، فرافقها ورافقته درب المقاومة والجهاد، وقد سبق لها وأن أخبرتني أنّها كانت تساعده في شراء الموادّ اللازمة لتجهيز المتفجّرات، كما أنّها أصبحت الآن وبعد انكشاف أمري الحلّ والمشكلة؛ ويعود السبب في ذلك إلى أنّ قوّات الأمن الصهيونية تطارد المهندسة، والمهندسة فتاة وجنان فتاة، أي أنّ عمليّة شراء المواد اللازمة للعمل الجهادي من قِبَلِها أصبحت صعبة جدًا إن لم تكن مستحيلة، ما الذي أخَّرَ أمّ كوثر؟! وما الذي أعاقها عن النزول إلى مَكمَني؟! فأنا على أَحَرٍّ من الجمر لسماع الأخبار، لعلّي أجد فيها تفاصيل تفيدني من أجل أن أُقَيِّمَ الوضع بشكل أوضح وأَجلى، لست أدري هل أصعد إلى الطابق العلوي للبحث عنها؟ أم أنّ الأفضل لي ولها البقاء كامنة كما أوصتني بذلك سابقًا؟ سأنتظر رغم القلق، وأكون صابرة، فبغير الصبر لن يستطيع المجاهد المطارد الاستمرار بعمله الجهاديّ، فهو مُطالب بأن يصبر على تقييد حركته، ويصبر على بُعده عن الأهل والأحباب، ويصبر على المتغيّرات والمشقّات من جوع وعطش وحرّ وبرد.

اصبري يا ملاك على ما أصابك.. فإنّ ذلك من عزم الأمور

# ملائكة وشياطين

«تحت عنوان (الأمن يتعرّض ملائكة المقاومة بالمطاردة والملاحقة والاعتقال والتعذيب والقتل والتشريد) لكن أيّ أمن هو ذاك؟! أهو أمن أبناء فلسطين أم أنّه أمن الصهاينة الذين يحتلّون فلسطين؟! فالعار كلّ العار لشياطين الأجهزة الأمنية الأوسلوية، أجهزة حماية المحتل، أجهزة الفساد والإفساد، بمسمّياتها المختلفة، فهذا أمن وقائيّ، وذاك أمن عسكريّ، ومن قبله مخابرات، ومن بعده استخبارات، والحقيقة أنّهم ليسوا سوى شياطين تخدم اليهود!

أخيرًا ومع اقتراب موعد أذان العشاء، نزلت أمّ كوثر إلى القبو وفتحت باب الغرفة التي أكمن في داخلها، بعد أن طرقت بابها السريّ حاملة معها جهاز المذياع، وعن سبب تأخّرها بادرتني بالقول بعد سلامها عليّ: «اعلمي يا ابنتي، أنّه ما إن صعدت إلى الطابق العلويّ حتّى سمعت طرقًا على باب الدار، فتوجّهت نحوه لكي أفتح للطارق فإذا بالثلاثي المقيت يقفنَ على عتبة باب الدار، وكأنّهن غربان الظلام وضباع النهار، دخلنَ الواحدة تلو الأخرى، وكأنَّ مجرّد فتحي للباب كان إيذانًا لهنَّ بالدخول لتدنيس منزلي، فلا أهلًا ولا سهلًا ولا حتّى مرحبًا، بأمّ المذموم عبّاس، ولا بأمّ المكروب فرج، ولا بأمّ المروح زياد.

وعندما قلت لهنّ محاولة جعلهنَّ يغادرنَ المنزل إلى خارجه، حيث اعتادت نساء القرى الجلوس: ألم يكن من الأفضل لو جلسنا في الخارج تحت مظلّة عريشة دالية العنب حيث الهواء العليل؟ هززنَ رؤوسهنّ الواحدة تلو الأخرى بإشارة الرفض.

رحّبتُ بهنَّ ترحيبًا جافًا لا لُبسَ فيه، متبعة ترحيبي بنظرة استحقار واستصغار، إلّا أنّهنَّ تجاهلنَ برودي معهنَّ، وتوجّهنَ نحو غرفة الضيوف.. ليس للجلوس بها طبعًا، وإنّما من أجل البدء بعملية البحث والتقصّي عنك يا ابنتي، تمامًا كما سبق لهنَّ وأن فعلنَ عندما كان زوجي الشهيد أبو كوثر مطاردًا من قبلهنَّ، فهنَّ السلطة، ومن قِبَلِ المحتلّ والمتسلّط.

توجّهتُ بعد ذلك يا ملاك القدس إلى المطبخ، بعد أن أخبرتهنّ بنيّتي عمل الشاي لهنّ، ويا ليتني أملك سمًا قاتلًا لأسمّمهنَّ به وأريح أهل فلسطين من شرّ هؤلاء الشياطين.

ما إن وصلت إلى المطبخ، وقبل أن أبدأ بصنع الشاي لهنَّ، قمتُ بالاتّصال بأخواتي أمّ البنّا وأمّ الياسين وأمّ القسّام مخبرة إيّاهنَّ أنَّ في داري ضيوفًا غير مرغوب بهنَّ، ضيوفًا ثقال الدمّ خفاف الدِّينِ والوطنية والشرف والانتماء، لم أكن بحاجة لشرح الحال لأخواتي الثلاث اللواتي سارعنَ بالحضور إلى منزلي على عجل.

كانت كعادتها أمّ البنّا أوّل الحاضرين؛ وذلك لقرب منزلها من منزلي، فدخَلَت مباشرة دون أن تطرق باب الدار، وتوجّهت إلى حيث كنتُ في المطبخ، وتلتها أمّ الياسين مصطحبة معها كلًا من أمّ القسّام وأمّ السرايا وأمّ الألوية، وتوجّهنَ فورًا نحو غرفة الضيوف، التي لم يكن فيها سوى أمّ المذموم عبّاس.

أهلًا.. أهلًا يا أمّ المذموم عبّاس، خير إن شاء الله، مع أنّي أجزم أن لا خير يأتي من قِبَلِكِ أبدًا، ما الذي أتى بك إلى حارتنا وإلى منزل أمّ كوثر أختي؟! فنحن لم نرك في حيّنا وعند بيوتنا منذ أن كان أبو كوثر رحمه الله مطاردًا، أي قبل أن تشوا به ويستشهد على يد الصهاينة أسيادك؟ صحيح أين أمّ المكروب فرج وأم المروح زياد؟ قبل أن تجيب أمّ المذموم عبّاس على سؤال أختي أمّ الياسين، انطلقت أمّ القسّام وأمّ السرايا وأمّ الألوية بحثًا عن غرابي أجهزة أمن أوسلو اللعين، فوجدنَ إحداهنَّ في القبو تعبث، والأخرى على سطح الدار تبحث، ماذا تفعلين في القبو يا أمّ المكروب فرج؟ وعن ماذا تبحثين؟ وكيف نزلتِ إلى هنا أصلًا؟ ومن ذا الذي سمح لك بذلك؟ هل أضعتِ إبرة قبل عام في القبو فنزلتِ الآن للبحث عنها؟ وقبل أن تجيبَ كانت أختي أمّ القسّام تصيح فيها مواصلة هجومها الكلاميّ، هذا برميل مليء بالزيت، وذاك مليء بالزيتون، أمّا ما هو معلّق إلى جوار الثوم الناشف فهو البامية المجفّفة وإلى جانبها الأيمن الخرّوب والقُطّين، وهي طبعًا ما تخزّنه أمّ كوثر لمؤونة الشتاء الذي لم يحلّ بعد،

وتلك المرطبانات المصفوفة على الأرفف الخشبية هي كما هو واضح وجليّ ملأى بمخلّل الخيار والفقّوس، وبمكبوس الباذنجان مع الزيت واللوز، وإلى جوارها مرطبانات الجبنة البيضاء وكرات اللبن بالزعتر والزيت، وهناك في ذاك الكيس يوجد العدس المجروش، والحنطة الناشفة، والفاصوليا البيضاء المجفّفة، وكما ترين يا أمّ المكروب ماجد فلا يوجد في قبو دار أختي أم كوثر سوى مؤونة الشتاء وخزين الطعام، فأبنائي القسّاميّون المطاردون منذ زمن بعيد لا يختبئون عند خالتهم أم كوثر، فأقدامهم لم تطأ تراب القرية منذ أن طوردوا من قبل الصهاينة المحتلّين ومن قبلكم يا شياطين التنسيق الأمنيّ، ألا لعنة الله عليكم وعلى اليهود أسيادكم، صَعَدَت أمّ القسّام وهي تدفع أمّ المكروب إلى الأعلى خارج القبو، وفي الوقت ذاته كان كلٌّ من أمّ السرايا وأمّ الألوية تنزلان من سطح المنزل وهما تخفران وبقوّة ملحوظة أمّ المروح زياد.

في تلك الأثناء كانت أمّ البنّا تقف في بهو الدار وهي تصيح قائلة: لا أهلًا ولا سهلًا بشياطين أوسلو اللعين يا أمّ المذموم عبّاس، ولا بأجهزتك الأمنية العميلة المتمثّلة بأمّ المكروب ماجد وأمّ المروح زياد، لا أهلًا ولا سهلًا بمن بنجاستهنّ دنّسنَ بيتنا الفلسطينيّ الطاهر، اخرجن ملعونات مذمومات مدحورات، ولا تَعُدنَ إلى منزل أمّ كوثر مرة أخرى.

يا أمّ كوثر أفيضي علينا من ماء نهر الجنّة (ماء الكوثر)؛ حتّى نغتسل ونغسل الدار والقدس والأقصى لنطهّرها من دنس هؤلاء الخائنات المجرمات الكاسيات العاريات العاهـ.. في تلك الأثناء اندفعت شيطانات أوسلو مهرولات خارج الدار وهنّ يَجرُرنَ أذيال الخيبة والخزي والعار كعادتهنّ، أمّا أخواتي أمّ البنّا وأمّ الياسين وأمّ القسّام فقد وقفنَ منتصبات القامة وعاليات الهامة، وكأنّهنّ في مرحلة ما بعد الحسم العسكريّ المظفّر الذي حدث في قطاع غزة العزّة.

بعد ذلك أمضيتُ عدّةَ ساعات بين أخواتي ملائكة المقاومة، اللواتي كنسنَ أخوات إبليس إلى خارج أسوار الدار، ويا ليتهنّ كنسنهنّ إلى خارج حدود فلسطين، لكنّا قد تمكنّا من تحريرها من دنس يهود قبل أعوام وأعوام.

ملاك.. يا ابنتي المهندسة، هاك هذا جهاز المذياع ومعه كتاب الله، ملاك ابقي كامنة مستترة، في هذه الغرفة السريّة في جوف هذا القبو، فالواضح والجليّ من الأمر يشير إلى أنّ شياطين وأبالسة أوسلو مستنفرين على أعلى مستوى، للبحث عن مهندسة القدس، مهندسة الحرائر، ومهندسة كتيبة عواصف الجثامين، ولا تفكّري الآن بمغادرة القبو والمكمن وسوف آتيك بكلّ ما يلزمك من احتياجات. وقبل أن أنسى فهذا الكيس مليء بالملابس الجديدة، والحلوى الطازجة التي أَحضَرَتها لك ابنتي كوثر، سآتيك بالعشاء بعد قليل، ثمّ سأذهب إلى منزل ابنتي كوثر للسهر عندها كعادتي، حتّى لا أغيّر العادة التي اعتاد الناس على رؤيتي فيها، وهي السهر عند كوثر وأحفادي كلّ ليلة.

ملاك.. قد يُداهَم منزلي من قبل قوات الأمن الصهيونية للبحث عنك، بعد أن فشلت شياطين أوسلو الأمنية في ذلك، فمنزلي حاله كحال سائر منازل الأسيرات الفلسطينيات اللواتي كنّ معي عندما كنت في الأسر عند الصهاينة، فكلّ منازلهنّ مراقبة ومتابعة من قبل تلك الأجهزة الأمنية وعملائها، حالنا يا ملاك كحال منزل والديك وأخوتك وأقاربك هناك في مدينة القدس.. يا ملاك القدس.

وداعًا يا ملاك.. وداعًا يا أمّ كوثر

وَدَّعتُ أم كوثر بعد أن ودَّعتني وَدَعَت لي الله بأن يُعمي عنّي أعيُنَ أعدائه، ثمّ مددتُ يدي لأتناول بعض الحلوى التي أحضرتها لي كوثر من مدينة رام الله، إلّا أنّني لم أجد للحلوى طعمًا؛ فرام الله وحلويّاتها فقدتا طعمهما منذ أن حلّ فيها غراب أوسلو الواهم.

وعندها جُلت بفكري متسائلة عن السبب الذي جعل شطرًا من أبناء فلسطين يتحوّلنَ من مقاتلين مقارعين للصهاينة، إلى عبيد يأتمرون بأمرهم بين ليلة وضحاها، وماذا حلّ برجال الخنادق الذين كانت تفوح منهم رائحة البارود؟ هل هؤلاء هم السكارى الذين يملؤون بارات الفنادق والملاهي التي عجّت بها مدن رام الله وبيت لحم وأريحا ونابلس و و..؟! وهل هم هؤلاء المترنّحون الذين تفوح منهم رائحة الخمر بعد أن ملؤوا المدينة بيوتًا للعهر والرذيلة؟! وأين فلسطين الطاهرة من هؤلاء الأنجاس؟ لماذا؟ نعم، لماذا؟ وكيف؟

ومتى تحوّل شطرٌ من أبناء شعبي إلى شياطين؟! نعم، تحوّلوا إلى شياطين، لكنّنا لم نكن نعي ذلك منذ البداية، ومنذ أن صاح القائل فيهم: «أكثرُ ما أخشاه أن تصبح الخيانة مجرّد وجهة نظر».

وهنا أقول لذلك القائل: ما عاد هناك ما تخشاه، فقد تحوّل أصحاب وجهة النظر الخيانية إلى قادة لمنظمة (التدجين) الفلسطينية، وما هي بفلسطينية.

تحوّلوا إلى قادة للاوطنية، بعد أن هبطوا على أرض فلسطين، بمظلة أوسلو الخيانية، فحوّلوا نظريّتهم الخيانية الشيطانية، إلى واقع وحقيقة ملموسة ومحسوسة، فلا تخشَ شيئًا، ونَم بقبرك بسلام، فأنت في زمن السلام.

ثمّ ما الذي دفع بالشطر الآخر من أبناء فلسطين ليكونوا ملائكة ربّانيّين يقاتلون في الميدان بني صهيون، قبل أن تكمن في الخنادق لتعدَّ وتستعدَّ، ولتحفر الأنفاق استعدادًا لجولة جديدة بين الحقّ المقاوم والباطل المحتلّ، جولة نحارب بها أبالسة اليهود وشياطين النفاق الأوسلوي، ملائكة المقاومة يحاصَرون هناك في قطاع غزة العزة، ورغم ذلك ما زالوا يحصُرونَ قتالهم ويوجّهون بنادقهم وبارودهم نحو المحتلّ الصهيونيّ وضدّه، ولم ولن ينجرّوا لقتال من أغرقوهم بمياه البحر، وأغلقوا بوجههم الحدود بجدران الموانع والسواتر والبارود.

حصار من القريب والبعيد لذاك الشطر الملائكيّ المقاوم، وفي المقابل تسهيلات ما بعدها تسهيلات للشطر الآخر، شطر المساومين، وفي هؤلاء أردّد ما قاله الشاعر في قديم الزمان:

لئن كانت الأرزاق قسمًا مقدّرًا ... فقلة حرص المرء في الرزق أجملُ
وإن كانت الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخلُ
وإن كانت الدنيا تُعَدُّ نفيسةً ... فقدر ثواب الله أعلى وأنبلُ
وإن كانت الأبدان للموت أُنشئت ... فقتل امرئ في الله بالسيف أجملُ

ما لي وما للشِّعر؟ فالشِّعر له أصحابه، أمّا أنا فصاحبي في قبوي هذا بعد كتاب ربّي.. جهاز المذياع.

# صوت الحرائر

«هنا صوت إذاعة الرأي الحكومية، هنا إذاعة الحكومة المقاومة، الحكومة التي تخلّى رجالها الأحرار المقاومين عن المناصب وكراسي الحكم؛ لأنّهم أرادوا الاحتفاظ بالوطن حرًا موحّدًا، إلّا أنّ الأوغاد خانوهم، كما خانوا الوطن!»

قرأت في كتاب الله لبضع ساعات، فهدأت نفسي وأيقنتُ أنّ هناك خطّين متوازيين لا يمكن لهما أن يلتقيا، خطّ الملائكة وخطّ الشياطين، وهناك أيضًا خطّان آخران، خطّ المقاومة والجهاد في سبيل الله، وخطّ الخيانة والمساومة، أوّلهما إلى العزّة والانتصار، وثانيهما إلى الخزي والعار، وضعتُ القرآن الكريم بعد أن قبّلته لما له من قبول في قلبي وعقلي، وضعتُهُ بعد أن زدتُ يقينًا على يقين بأنّ الحقّ منتصر ولو بعد حين، وما لبثت أن أمسكت بالمذياع باحثة عبر أثيره عن صوت حرّ، صوت مقاوم، فيا سبحان الله.. بعد أن كنت أمتلك عبر جهاز استقبال البثّ الفضائي مئات المحطّات، وضعفها عبر الشبكة العنكبوتية، بالإضافة إلى تلفاز الهاتف النقّال، آلَ بِيَ الحالُ لأصحب جهاز مذياع عفا عليه الدهر منذ زمن.

جهاز أصبح منذ الآن الصديق والوسيلة الوحيدة التي أستقي منها الأخبار، وأستمع عبرها إلى أناشيد المقاومة والانتصار، بدأتُ أقلّبُ محطّات المذياع الواحدة تلو الأخرى، فإذا بمحطّات الأثير قد انقسمت إلى قسمين: قسم يغنّي على ليلاه، ليل أمّ كلثوم وعبدالحليم، وإذا أراد أن يجدّد انتقل إلى ليل نانسي وهيفاء وإليسا و و.. وإذا ما ملّ من أم كلثوم ونانسي انطلق منافقوه لأغاني تمجيد الزعماء والرؤساء، وصولًا إلى أغاني تمجيد أجهزتهم الأمنية القمعية والشرطية العليلة.

وهناك على أثير المذياع قسم آخر، قسم محطّات المقاومة، وهو قسم بثُّ أثيره ضعيف، لأنّ إمكانيات القائمين عليه ضعيفة بسبب الحصار الذي طال أَمَدُه،

إلّا أنّ ضعف قوّة البثّ الذي بالكاد يمكنني التقاطه لم يكن يعني بأيّ حال من الأحوال ضَعفَ مضمون ذلك البثّ.

وها هي إحدى حرائر إذاعة الرأي الحكومية، التي تبثّ برامجها من قطاع غزّة المحاصر واسمها فاطمة، نعم، فاطمة القاضي، تصدح بصوتها الحرّ قائلة: آن الأوان لنا كحرائر المقاومة أن نفخر بأنه قد غدا لنا أختٌ مهندسة مقاومة، حملت على عاتقها عبء مقاتلة العدوّ الصهيونيّ بالسلاح، كما سبق وأن حملت العديد من حرائر فلسطين أعباء شتّى من أعباء مقاومة المحتلّ الغاصب.

فنحن أمّ المقاوم وزوجته، ونحن أخته وابنته، ونحن المصابة والأسيرة والشهيدة، والمكلومة والمفجوعة بفقد الأب والأمّ، وبفقد الزوج والأخ والابن شهيدًا، نحن الأمّهات الحرائر اللواتي حملن في أرحامهنّ الأحرار والحرائر، وربّينا في بيوتنا التي غَدَت مدارس مقاومة، المقاومين والمقاومات، نحن من حملنا الجنين الذي كبر وحمى جِنين، وربّينا الولد فغدا ابن الوليد خالدًا، وعلّمنا الشابّ كيف يجاهد، فشابَ وهو يجاهد، نحن مدرسة قامت على القرآن والسنّة، فتخرّج منها خير أبناء هذه الأمّة.

لك يا مهندسة حرائر القدس نبعث بأحرّ سلام، فلا تستسلمي وقاومي، لا تستسلمي واهجمي، لا تستسلمي وسلّمي أمرك لله، فهو خير هادٍ ومعين لك في مطاردتك من قبل المحتلّين وأعوانهم، ملاك.. يا مهندسة الحرائر، لك في غزّة الحرّة خير قدوة، فقد حوصرَت وجُوِّعَت وحوربَت، لكنّها لم ولن تركع، فها هي لا تزال تُقاتل وتُقاوم وتُعِدُّ وتستعدُّ، فأعدّي لجولة جديدة من جولات عمليّاتك الجهادية.

اعلمي يا أخت المرجلة، أنّ الحرائر والأحرار يدعون لك ليل نهار حتّى تتمكّني بعون الله من مواصلة الدرب والمشوار.

قالوا طبيبة.. قلت فلا خير في طبيبة لا تداوي جراح الوطن وألم المواطن المكلوم.

قالوا محامية.. قلت لا خير في محامية لا تدافع عن الوطن والمواطن والمظلوم.

يا أخت شيرين العيساوي، المحامية المقاومة التي سجنت المرة تلو الأخرى لأنّها دافعت عن الوطن مرة تلو مرّة..

يا أخت خنساء فلسطين أم محمّد فرحات، افرحي بما قسمه الله لك من حمل أمانة المقاومة.

ملاك الحرائر.. اسمحي لي بأن أكون ومنذ الليلة أختًا لك ترافقك عبر هذا الأثير، أثير صوت الحرائر، فأنا ومنذ الليلة سأنطلق ببثّ حيّ ومباشر ومفتوح بعد أن أَذِنَ لي الأحرار القائمون على محطّة الرأي الحكومية المقاومة من أجل أن نكون للمهندسة العين التي ترى بها، والأذن التي تسمع بها، والعقل الذي يعصف فكرًا ليقدّم النصيحة والمشورة، مهندستنا المطاردة، ومستمعينا الكرام، اسمحوا لنا بالخروج بفاصل إنشادي قصير، نسمعكم خلاله أنشودة أخت المرجلة، ثمّ نعود لكي نبدأ المشوار، يا أخت الحرائر والأحرار.

جميلة هي معاني كلمات تلك الأنشودة التي سبق لي وأن استمعت لها مرّات عدّة عندما كنت حرّة طليقة، إلّا أنّ لمعاني كلماتها الليلة طعمًا آخر ومعنًى آخر، طعمًا ومعنى لا أعرف لهما وصفًا سوى أنّهما قَوَّيا عزيمتي، وشَحَذا هِمَّتي، ورَفَعا معنويّاتي.

مهندسة الحرائر.. سنتحدّث الليلة عبر الأثير مع أمّ آوت في بيتها ابنها المقاوم المطارد لأعوام عدّة، قبل أن يُستشهد في إحدى العمليّات الجهاديّة الهجومية، هذه الأمّ المقاومة ستقدّم لك يا أخت المرجلة نصائح عدّة، لعلّها ولعلّنا نتمكّن من المساهمة ولو بالقليل من الجهد حتى تتمكّني من مواصلة المشوار، مشوار المهندسة المطاردة.

أمّنا الحرّة، رحم الله ابنك الشهيد وسائر شهداء فلسطين، أمّنا هلّا قدّمت لمهندستنا المقاومة والمطاردة بعض النصائح والتوصيات حتّى تتمكّن من التداري،

في مخبأ آمن بعيدًا عن أعين الصهاينة وأذنابهم، لعلّها تتمكّن بعون الله من مواصلة مشوارها المقاوم.

بسم الله الرحمن الرحيم.. وبه نستعين..

ابنتي فاطمة، وابنتي المهندسة ملاك، اسمحا لي أن أقدّم لكنّ وللمستمعين الكرام خبرة أعوام طويلة عايشت خلالها ابني المطارد قبل أن يُستشهد، فتعلّمتُ منه كيف يقاوم، وكيف ينفّذ عمليّاته الجهادية، وكيف يحمي نفسه وملجأه الآمن الذي كان يختبئ فيه خلال ملاحقة قوّات الاحتلال الصهيوني وقوّات سلطة أوسلو له، ولنبدأ هنا يا ملاكنا الحرّ المطارد بالحديث عن أمن المخابئ، فأمن المخابئ يا ابنتي جزء لا يتجزّأ من أمن العمليّات، فالمخبأ الآمن يعتبر أحد أعمدة العمل الجهاديّ الناجح، وهو أوّل ما يشغل فكر المقاوم، إذا ما أصبح ملاحقًا ومطلوبًا لقوّات أمن المحتلّ وأعوانه، فالمطارد بحاجة إلى الملجأ الآمن الذي يؤويه ويضمن له أمنًا واستقرارًا نسبيًا، يمكّنه من إطالة عمر عمله الجهاديّ، ويتيح له الإعداد الجيّد لضرب عدوّه والإثخان فيه.

وهنا يجب أن تعلمي يا ابنتي المهندسة المطاردة أنّ المخبأ هو العنوان الأعرض الذي قد يتمكّن العدوّ الصهيونيّ من الوصول إليك عبره، خصوصًا إن كان الملجأ لا يحقّق المعايير الأمنية اللازمة، لذلك سيكون حديثي الليلة عن المعايير التي يجب توفّرها في المخبأ والملجأ الآمن، يا ابنتي ملاك ويا كلّ مطارد ومطاردة، وسوف أوجز تلك المعايير عبر النقاط الآتية:

أوّلًا: ألّا يكون الملجأ قد سبق وكُشِفَ أمره من قبل قوّات الاحتلال الأمنية من خلال اعتقالها لأحد المطلوبين في داخله، أو بسبب أنّ مالكيه من نشطاء المقاومة.

ثانيًا: كلّما كان موقع الملجأ كاشفًا لمحيطه، يكون الأمان فيه أكثر، فمن الصفات الكمالية للملجأ أن يكون في موقع يكشف محيطه، كأن يكون مرتفعًا نسبيًا، بحيث يمكن من خلاله مراقبة المحيط ورؤية القادم من بعيد،

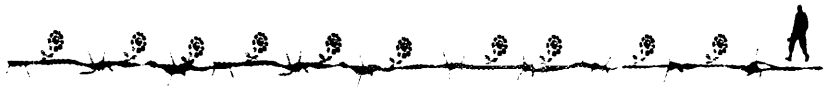

وذلك لاتّخاذ الإجراءات الوقائية اللازمة سواء بالانسحاب منه، أو بإخفاء الموجودات فيه، أو الدخول إلى (مكمنه) السريّ، أو حتّى إذا كانت المواجهة حتمية أن ينتبه إليها مبكّرًا فيستعدّ لها بشكل أفضل.

ثالثًا: أن يتمّ تزويد الملجأ بأدوات الإسعاف الأوّلي يا دكتورة، حتّى تسعفي نفسك في حال حدوث مكروه لا سمح الله، ويجب أيضًا أن يحتوي الملجأ على جهاز مذياع أو تلفاز للمحطّات الفضائية إن أمكن، أو حتّى شبكة إنترنت آمنة للتواصل، وأن يتمّ تزويد الملجأ بكميّات من الأطعمة القابلة للتخزين لفترة طويلة مثل (المعلّبات) بأنواعها المختلفة، وتزويده بكمّيّات من الماء أيضًا، وفي هذه النقطة تحديدًا يجب على من يقوم بإعداد الملجأ الآمن أن يجتهد قدر الإمكان بتوفير متطلّبات المعيشة اللازمة لإبقاء المطارد بأفضل حال.

رابعًا..

خامسًا..

سادسًا..

لقد واصلت أمّ المطارد الذي غدا شهيدًا، مع محاورَتها الإعلامية فاطمة القاضي حوارهما الذي امتدّ حتّى ساعات ما بعد منتصف الليل، كان حوارًا ثريًا ومهمًا ومفيدًا، فحوارهما جعلني أدرك أنّني لا أخوض هذه المعركة وحدي، بل أخوضها جنبًا إلى جنب مع كلّ حرّة ومقاومة، أخوضها لأجلهنَّ تمامًا كما أخوضها معهنَّ، تتالت الليالي وتتالت معها موجات البثّ المباشر، وتنوّعت خلالها مادّة الحديث، وتعدّدت الشخصيّات، التي كانت تستضيفها المحاورة، إلّا أنّ المحور كان يدور دائمًا حول كيفية مساعدتي من أجل أن أبقى بعيدة عن أعين قوّات الاحتلال الأمنية، وتوأمتها المتعاونة معها، نصائح وخطط وتوصيات استفدتُ منها، وراكَمَت لديّ خبرات كنت في أَمَسِّ الحاجة لها.

خلال تلك الفترة.. حافظت أمّ كوثر على أن تسير حياتها ضمن الروتين الذي اعتاد من حولها من الأقارب والجيران على مشاهدتها فيه،

بحيث واصلت نشاطاتها الاجتماعية، وكأنّ شيئًا لم يكن، وكأنّها لا تواري في مكمن قبو منزلها المهندسة التي باتت هدفًا يعرّض كلّ من يؤويه ويحميه إلى مخاطر جمّة من الصهاينة المحتلّين أو الأوسلويّين المنحلّين الذين ما عادوا فلسطينيّين، فعقلي المتواضع والسائر على الفطرة لم ولن يتقبّل فكرة أن يلاحق فلسطينيّ فلسطينيًا آخر خدمة للمحتل، ولا أن يقتل فلسطينيّ فلسطينيًا آخر خدمة للمحتل، أو بتهمة مقاومة المحتلّ الصهيونيّ، إلّا إن كان الفلسطينيّ الملاحِق والمعتقِل والقاتل تخلّى عن فلسطينيّته ووطنيّته بعد أن تخلّى عن دينه.

مضت عدّة أيّام وأنا على هذه الحال، فلا جديد إلّا ما يجود به أثير المذياع، وما تحمله أمّ كوثر من أخبار، فمن المذياع كنت أستقي الأخبار التي تتحدّث في بعضها عن بطولات الأجهزة الأمنية والاستخباراتية المحتلّة والمنحلّة في ملفّ ملاحقتهم إيّاي.

وفي تلك الأثناء أيضًا أمر المحتلّ الصهيونيّ قوّاته الأمنية لكي يقوم مهندسوها في قسم الاتّصالات بالتشويش على محطّة الرأي الحكومية، وعلى غيرها من إذاعات المقاومة، وقد امتدّ الأمر بأن قام الكيان الصهيونيّ بالضغط على حليفه الفرنسي من أجل إيقاف البثّ الفضائي لقناة الأقصى التي كانت تبثّ إرسالها عبر القمر الصناعيّ الفرنسي.

هنا وجدتُ نفسي وقد عُزِلتُ عن أخبار المقاومة، بالإضافة إلى عزلتي عن أخبار أهلي وأحبّتي، ممّا جعلني أعاود التفكير بواقعي الذي كنت أحاول الفرار منه بعض الشيء، كيف حال والدتي ووالدي وإخواني؟ وكيف حال جدّتي الحبيبة؟ هل كنت أحبّ نبيل أم أنّ نبيل هو من كان يحبّني؟ لا فرق بمن يحبُّ من، المهمّ هو حُبُّنا لفلسطين، وانتماؤنا لفلسطين، وتضحيتنا بأرواحنا من أجل فلسطين.

هل سأبقى مطارَدَة إلى الأبد؟ أم أنّ الصهاينة وأذنابهم سيصلون إلى مكمني هذا؟ هل سأُقتَلُ أم سأُعتَقَلُ وأودَعُ خلف أسوار المعتقل حتّى يأخذ الله أمانته ويقبض روحي؟

آه منك يا روحي! ألم أكن أنوي منذ أعوام طويلة أن أضحّي بك في سبيل الله؟! أنسيت يا روحي كيف كان حالنا في بداية انتفاضة حرائر القدس؟! عندما قرّرتُ حمل سكّين والتوجّه بها إلى إحدى الحواجز الأمنية الصهيونية من أجل طعن من فيه من جنود ومستوطنين، أليس الأجدر بي الآن يا روحي أن أتمنطق بحزام ناسف حتّى أكمل المشوار الذي عزمت على إنهائه منذ أعوام عدّة؟ أين صديقتي جنان؟ وأين المواد الناسفة والمتفجّرة؟ وأين الإعداد والاستعداد اللازمان من أجل إكمال المشوار والوصول إلى خاتمته التي تمنّيتها منذ اليوم الأوّل الذي قرّرتُ فيه مقاومة المحتلّ والمنحلّ؟ منذ أن قرّرت أن أكون حرّة مع أخواتي حرائر القدس وفلسطين، اللواتي ما تركنَ وسيلة إلّا واستعملنها ضدّ المحتلّ المجرم، فتلك بسكّينها طعنت، وهذه بمقصّ شعرها في صدر المستوطن الموتَ غرست، وأمّا التي امتلكت سيّارة فقد دهست فيها جنودًا ومستوطنين، أينما تواجدوا على شوارع فلسطين، أين أنا الطبيبة والمهندسة من أخواتي هؤلاء اللواتي امتلكن القليل من وسائل المقاومة لكنّهنّ فعلن الكثير الكثير؟!

يجب أن أوجّه بوصلتي نحو هدفي المتمثّل بالإعداد الفوريّ للعمليّة الجهادية التي سأختم بها مشواري، أين جنان؟ وأين الموادّ اللازمة للتحضير لتلك العملية الجهادية؟ على هذه الحال من التفكير المتواصل ومن الأسئلة المتلاحقة والمتكرّرة كنت كمن يدور في دائرة مفرغة، أخشى أن يؤدّي دوراني فيها إلى فقدان توازني ثمّ سقوطي! أين أنت يا أمّ كوثر؟ وأين أخواتك أمّ البنّا والياسين والقسّام؟ أين أنتنّ يا أمّهاتي وأمّهات فلسطين؟ هلّا مددتنّ لي العون لعلّي أتمكّن من ختم المشوار الذي بدأته منذ أن احتلّ اليهود الدار!.

# أمّهات فلسطين

«إنّ الأمّ التي تربّي أبناءها على التضحية بأرواحهم من أجل تحرير الوطن وإقامة الدين، هي أمّ فلسطينية، سواء كانت تعيش في قلب فلسطين، أم أنّ فلسطين تعيش في قلبها»

كنت بحاجة إلى أمّ فلسطينية واحدة لتمدّ يد العون لي، فإذا بي محاطة بالعديد من الأمّهات الفلسطينيّات، كلّ واحدة منهنّ تمدّ لي يدها بعد قلبها وعقلها وروحها من أجل أن أواصل معهنّ وبهنّ المشوار، فها هي أمّ كوثر تأتيني بأخواتها الحرائر الثلاث أمّ البنّا وأمّ الياسين وأمّ القسّام، بعد أن أَخبَرتُها عن حاجتي لمن تَمُدُّ لي يد العون في العملية الاستشهادية التي كنت بصدد الإعداد لها.

وقد عقدنا أوّل اجتماع لنا هنا في قبو منزل أمّ كوثر، من أجل البدء بإعداد الخطّة معًا، فيدٌ واحدة لا يمكن لها أن تصفّق، ويدٌ واحدة لا تكفي لما نويت الإقدام عليه، ثمّ إنّ الأهمّ من ذلك هو أنّ يد الله دائمًا وأبدًا مع الجماعة؛ لذلك ما الضير إن تعاونتُ مع أخواتي الحرائر في الجماعة والحركة والكتائب، من أجل أن نعمل معًا على تحقيق هدفنا المشترك، والمتمثّل مرحليًا بتحرير فلسطين من دنس الصهاينة المحتلّين، ثمّ إقامة شرع الله فيها ليكون هو الفيصل والحَكَمَ بين العباد، الذين نسعى إلى إخراجهم من عبادة العباد بعد تطبيق شرع ربّ العباد، وزّعنا الأدوار على أنفسنا، ثمّ انطلقت كلٌّ منّا في طريقها من أجل تحقيق ما هو مطلوب منها، فها هي أمّ الياسين تتوجّه نحو منزل جنان لتأتيني بها، حتّى نجتمع في منزل يقع على أطراف مدينة رام الله يعود لابنة أمّ الياسين الكبرى، وقد تكفّلت أمّ الياسين بعمليّة التعمية والتمويه اللازمتين من أجل إنجاح هذا اللقاء، وإبقائه بعيدًا عن أعين أجهزة الاحتلال الأمنية وتابعتها الأوسلوية؛ ولأنّ الفضل يُنسب دائمًا لأهل الفضل؛ فقد استعانت أمّ الياسين من أجل إنجاح مهمّتها ببناتها،

بنات الكتلة الإسلامية اللواتي أنهى بعضهنّ الدراسة الجامعية، ولا تزال الأخريات على مقاعد الدراسة وفي ساحة العمل الطلّابي في العديد من الجامعات الفلسطينية.

أختي جنان.. أنا بحاجة إلى العديد من الموادّ اللازمة من أجل تصنيع المادة المتفجّرة التي سأستخدمها في العملية الجهادية الاستشهادية التي عزمتُ على الإقدام عليها، لذلك فالمطلوب منك يا أختاه وبشكل مباشر إمدادي بتلك الموادّ، أعلم يا جنان أنّك ملاحقة ومراقبة من قبل المحتلّ وأعوانه، لكنّي أعلم أيضًا أنّك قادرة على فعل المستحيل بعون الله من أجل إتياني بما أحتاج إليه.

ملاك.. أختي المجاهدة، سأفعل كلّ ما بوسعي من أجل تحقيق ما تطلبينه، لكنّي أنا الأخرى بحاجة لأن تحقّقي لي طلبًا وأمنية وحلمًا.

إن كان باستطاعتي، والله إنّي لما تطلبين محقّقة.

إنّه بمتناول يديك بإذن الله.. فطلبي بسيط؛ فأنا يا ملاك بحاجة لمن تساعدني على أن أصبح استشهادية، فالمطلوب منك ببساطة أن تصنعي لي حزامًا ناسفًا تمامًا كالذي ستصنعيه لنفسك يا ملاك المهندسة.

لكنّي لا أريد صناعة حزام ناسف لنفسي يا جنان.

ماذا؟!

نعم يا جنان.. لا أريد صناعة حزام ناسف لنفسي؛ لأنّ الحزام الناسف سيحتوي على كميّة من المتفجّرات ستبقى قليلة مهما حاولت، لجعل أثرها ومفعولها قويّ الأثر.

إذن!

إذن، هي السيارة المفخّخة، لأنّها ستكون قادرة على حمل الكثير من الموادّ المتفجّرة، ممّا سيجعل مفعولها أكبر وأقوى.

إذن، فأنت لا تمانعين تجهيز سيّارة مفخّخة لي كتلك التي ستجهّزينها لنفسك.

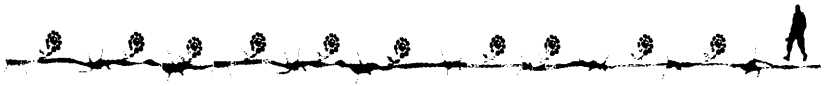

طبعًا لا أمانع، بل كيف لي أصلًا أن أمانع؟

حتّى لو قلتُ لك أنّني لن أقوم بتفجيرها بالصهاينة المحتلّين.

أخت جنان، أعلم أنّك تتألّمين منذ أن استشهد زوجك إثر التعذيب الإجرامي الذي مارسته أجهزة الأمن الأوسلويّة بحقّه.

وداعًا ملاك المهندسة.

وداعًا جنان التي لولاها بعد الله ما أصبحت مهندسة.

أمّ القسّام.. لقد اجتمعت مع جنان اليوم بواسطة أمّ الياسين، وقد ترتّب على ذلك تعديل الجزء الخاصّ بك في الخطّة.

اطلبي ما تشائين، وسألبّي بعون الله كلّ ما تحتاجين إليه يا مهندسة القسّاميّات.

أنا بحاجة إلى سيّارة أخرى بالإضافة إلى السيّارة الأولى التي طلبت منك العمل على إحضارها وفقًا للخطّة الأولى يا أمّ القسّام.

لا مشكلة، فبعون الله سيتمكّن ابني قسّام من إحضار سيّارتين اثنتين، حتّى تنفّذي ما عزمت عليه، وذلك بعد أن يقوم قسّام باستئجارهما عبر هويّة مزوّرة من إحدى شركات تأجير السيّارات الصهيونية، لا تقلقي يا ملاك، فقسّام رهن إشارتك.

شكرًا لك يا أمّ القسّام.

بل شكرًا لك يا ابنة القسّام، التي أعادت مجد حرائر القسّام، وحرائر القدس والأقصى.

في تلك الأثناء كانت أمّ البنّا تعمل على تجهيز المنزل الآمن الذي يحتوي على كراج واسع لوقوف السيّارات تحت مظلّته بعيدًا عن أعين المحتلّ وأعوانه، حتّى أقوم بتفخيخها حالما تصل الموادّ اللازمة.

أمّا جنان.. فقد مضت أيّام قبل أن تتمكّن من البدء بشراء الموادّ اللازمة لتنفيذ ما عزمنا عليه، لقد امتدّت عمليّات شراء تلك الموادّ إلى ما يزيد عن شهرين،

في حين تولّت أمّ الياسين عمليّة نقل الموادّ بالاستعانة ببناتها، بنات الكتلة الإسلامية، إلى المنزل الريفي الآمن، الذي أعدّته أختها أمّ البنّا، ليكون مكان التصنيع والتفخيخ ونقطة الانطلاق نحو الأهداف المزمع ضربها.

لقد تمكّن قسّام من إحضار سيّارتين حديثتين من ذوات الدفع الرباعي بعد أن زوّد كلتا السيّارتين اللتين كان قد استأجرهما بلوحات أرقام مزوّرة، وبمثلها من أوراق التسجيل، تمامًا وكما سبق أن طلبت منه أمّه أمّ القسّام، خلال تلك الفترة أيضًا كانت أمّ كوثر وابنتها ترافقانني خطوة خطوة بصمت دون كلل أو ملل، وقد فاجأتني أمّ كوثر أثناء حديثي معها في إحدى أيّام الإعداد والاستعداد للعمليّتين اللتين كنّا بصددهنّ، حيث قالت ودون مقدّمات: «ملاك.. أنت مهندسة، لذلك قبل أن تنطلقي نحو عمليّتك الاستشهادية التي عزمت على تنفيذها بعد أن تجهّزي لعملية جنان، أريد منك أن تقومي بتفخيخ منزلي يا ابنتي، ليكون جاهزًا للانفجار إذا ما دوهم واقتحم من قبل عدوّنا، وأريد منك أن تجعلي خيوط عمليّتك وعمليّة جنان تنتهي عندي، بحيث تشير أصابع الاتّهام نحوي بشكل واضح وجليّ، وهذا يا ابنتي سيؤدّي إلى تحويل منزلي إلى هدف للمداهمة والاقتحام، من قبل المحتلّ الصهيونيّ وعملائه.

تفهّمتُ طلب أمّ كوثر، خاصّة أنّها قد أبدت لي رغبتها بأن تكون استشهادية عندما كنّا سجينتين لدى قوّات الاحتلال الصهيونيّ، وتفهّمتُ أيضًا رغبتها بعدم إطلاع ابنتها كوثر على ما كانت قد نَوَت عليه.

الإعداد والاستعداد:

لقد سارت عملية الإعداد للعمل الجهاديّ الذي أجمعنا على القيام به بشكل جيّد جدًا، ودون إشكاليّات تذكر، سوى بعض التأخير بسبب التدابير الأمنية التي كنّا نتبعها بشكل لا يمكن التساهل فيه، البيت الريفيّ الآمن أصبح جاهزًا بعد أن أعدّته أمّ البنّا ليخفي في جوفه السيارتين اللتين أحضرهما قسّام وعملتُ على تفخيخهما، بعد أن قمت بتصنيع الموادّ اللازمة للتفخيخ من الموادّ التي تمكّنت جنان من الحصول عليها عبر طرق ملتفّة ومموّهة،

وقد استعنتُ بعملية التفخيخ بقسّام الذي قمت بتعليمه كيفية التصنيع والتفخيخ بناء على طلب والدته أمّ القسّام، أمّا أمّ الياسين فقد أحضرت لي هي الأخرى إحدى بناتها، بنات الكتلة الإسلامية، من أجل أن أقوم بتدريبها تدريبًا احترافيًا حتّى تصبح مهندسة عمليّات جهادية، وهي التي تدرس الهندسة المعمارية في إحدى الجامعات الفلسطينية.

أمّا المفاجأة الكبرى فقد تمثّلت في طلب وإصرار الحاجّة المسنّة أمّ البنّا على تعلّم كلّ ما سبق لي وأن تعلّمته من فنون الهندسة المقاومة، وعندما سألتها عن السبب الخفيّ وراء طلبها أجابت بكلّ بساطة وتلقائية:

لا بدّ للحقّ يا ابنتي من قوّة تحميه وإلّا استبيح من قبل الطغاة والغزاة، ألم يستعن غزاتنا الصهاينة بكل الطغتة لوأد الانتفاضة الثالثة انتفاضة حرائر القدس؟ فالغزاة يستعينون بالطغاة، والطغاة أيضًا يستعينون بالغزاة ويستدعونهم إذا ما قويت شوكة المقاومة، درّبيني يا ابنتي فمعركتنا ضدّ الصهاينة وأعوانهم ما زالت مفتوحة.

السمع والطّاعة يا أمّنا يا أمّ البنّا.

بارك الله فيك يا مهندسة هندست معادلة جديدة من معادلات صراع حرائر القدس ضدّ المحتلّ.

درّبتُ ودرّبتُ حتّى أتممتُ عمليّات التدريب تلك، تمامًا كما انتهيتُ من تجهيز السيّارتين للعمليات الاستشهادية، ثمّ قمتُ بنقل عمليّة تصنيع الموادّ المتفجّرة وتجهيز العبوات الناسفة إلى منزل أمّ كوثر بناء على طلبها الملحّ، والذي أصبحت ابنتها كوثر على علم به بعد أن أخبَرَتها والدتها، وقد عملتُ لعدّة ليالٍ جنبًا إلى جنب مع أمّ كوثر على تفخيخ منزلها بشكل قويّ ومحكم، بحيث تمّ لها ما أرادت وأصبح المنزل معدّاً لكي تقوم بتفجيره وقتما تشاء، وقد حاولتُ خلال عملية التصنيع والتفخيخ أن أقنعها بأن تتمّ عمليّة التفجير بواسطة جهاز للتحكّم عن بعد، أو من خلال هاتف نقّال، إلّا أنّها أصرّت على أن تتمّ عملية تفجير منزلها من خلالها هي وبشكل مباشر، أي أنّ أمّ كوثر أرادت تفجير المنزل عندما تكون متواجدة في داخله، وبعد أن تتأكّد أنّه قد امتلأ بجنود المحتلّ الصهيونيّ،

الذين سيجتاحونه بعد ما نقوم بتفجير سيّاراتنا المفخّخة.

في خِضَمّ ذلك كلّه ورغم الضغط النفسي والجسدي الكبير الذي كنت أقبع تحته، إلّا أنّني لم أنسَ إرسال رسالة إلى الخطيب والحبيب نبيل، لأشكره بداية على كلّ ما قدّمه لأجل فلسطين من خلالي، ولكي أطمئنه على أحوالي، وأن أبلغه بالمهمّة الأخيرة التي أوكلت له للعمل على إتمامها، تمامًا كما سبق له إتمام العديد من الأعمال التي سبق وأن أوكلتها إليه، وداعًا نبيل.

أمّا والدتي فقد تمكّنت هي وجدّتي من الحضور إلى أحد المنازل الآمنة التي هيّأتها لنا إحدى بنات أمّ الياسين، حيث اجتمعنا فيه سويًا، لعدّة ساعات وَددتُ لو أنّها طالت إلى ما لا نهاية.

ولا داعي هنا لتفسير تضارب مشاعر اللقاء الممزوجة بالحزن والأسى المتوّج بالفخر والعزّة لما قمت به من قبل جدّتي ووالدتي، فقد كانت كلتاهما فخورتان بما أقدمتُ عليه حينما قصصت عليهما كيف تمكّنت من التحوّل من طبيبة مداوية إلى مهندسة مقاومة.

بعد اللقاء انطلقت كلّ من والدتي وجدّتي على عَجَل إلى القدس ومنها إلى عمّان مودّعاتٍ إياي والقدس إلى الأبد، أو إلى أن تتحرّر القدس فتعودان إليها، وإلى أن يقبض الله روحيهما عندما يحين أجلهما، فنجتمع عنده في جنّة الخلد بإذنه وأمره.

انطلقتا وهما تردّدان الآية الربّانية الكريمة التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: ٢١٦

بعد هذا اللقاء الذي أعترفُ أنّ قلمي قد عجز عن وصفه من شدّة ما فيه من مشاعر حبٍّ جيّاشة اجتاحت الأمّ والابنة والجدّة، فخلال هذا اللقاء حاولت جدّتي المكوث معي لتكون هي الأخرى جزءًا من الخطّة التي عزمت على تنفيذها، إلّا أنّني استطعت ثنيها وبصعوبة عن ذلك، أمّا والدتي فقد تطلّبَ أمرُ إقناعها بالعدول عن مرافقتي في السيارة التي عزمتُ على تفجير نفسي فيها جهدًا كبيرًا ومضنيًا للغاية.

«يا ليتك يا ابنتي قمت بتجهيز سيّارة مفخّخة كسيّارتك لأتوجّه بها نحو نعيم الجنّة بإذن الله بدلًا من نار الاغتراب هناك في عمّان» هذا ما قالته والدتي عندما حانت ساعة الوداع، أمّا جدّتي فقد قالت: «لا أستطيع قيادة السيّارات، لكنّني أستطيع ارتداء حزام ناسف، يا ليتك مكّنتني من التمنطق بواحد من صنع يديك، يا حفيدتي وملاكي المقاتل، فلعلّي من خلاله أتمكّن من حصاد بعض رؤوس بني صهيون الذين أجبرونا على العيش في غربة المهجر، بعدما هجّروني مع جدّك حين احتلّوا فلسطين بقدسها وأقصاها بمساعدة من خان وباع وهادن، ومن ارتضى على نفسه أن يغدر فيغدو عبدًا ذليلًا لبني صهيون، لا عبدًا مكرّمًا لربّ العباد، وداعًا ملاك الحفيدة».

وداعًا جدّتي الحبيبة.. وداعًا ملاكي الابنة.. وداعًا والدتي الملاك

استودع كلّ منّا الآخر أمانة عند ربّه، وانطلقنَ قافلات إلى القدس، ومنها إلى عمّان، وانطلقتُ أنا الأخرى إلى مكمني ونقطة الانطلاق بعدما اقتربتُ من نقطة الصفر المؤذنة بحتمية الإقدام والتنفيذ.

رحم الله القائل:

إنّ معنى الجهاد رصّ الصفوف ... وبناء على الهدى مشدود

الطريق القويم أشرق بالحقّ ... وهذا سبيله الممدود

عزة تلتقي عليها القلوب ... صادقت ربّها وأوفت كبود

عزمات تبني النفوس ويحييها ... الكتاب المجيد والتوحيد

وأعدّوا بما استطعتم رباطًا ... من قوى ترهب العدا وتسود

واصدقوا الله في الميادين ... نصرة الحقّ -جلّ- والتأييد

وإن تولّوا يستبدل الله قومًا ... غيركم لا تضيع بهم عهود

# في سبيل الله

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩

بعدما وصلت إلى مكمني ومخبئي الآمن في سرداب منزل أمّ كوثر، جلستُ مترقبة وأنا على أحرّ من الجمر، ما ستحمله لي الساعات القادمة من أخبار، ولم يكسر صمت الترقّب والانتظار سوى ابتسامة أمّ كوثر التي نزلت إلى السرداب مصطحبة معها أختها أمّ الياسين لتزفّا لي بشرى خبر تلقّي ابنتها للإشارة المتفق عليها من أجل البدء في تنفيذ مخطّطنا المقاوم المعدّ سلفًا.

وقد تمثّلت تلك الإشارة بما أرسله الحبيب نبيل عبر أحد المواقع الإلكترونية مفيدًا بأنّه قد حصل على الوصايا التي كنت قد أرسلتها إليه من خلال والدتي وجدّتي اللتين تمكّنتا بحمد الله من الوصول إلى العاصمة الأردنية عمّان، حاملتين معهما بطاقة للذاكرة مخزّن عليها مقاطع الفيديو الخاصّة بالوصايا التي قمنا بتسجيلها، وذلك لنشرها بالطريقة التي اعتاد عليها، بعد أن نقوم بتنفيذ ما كنّا قد عزمنا عليه من عمليات جهادية، وقد أرفقت تلك التسجيلات المصوّرة بمقطع فيديو موجّه للحبيب نبيل لكي أطمئنه فيه على أحوالي، ولكي أعبّر له فيه وللمرّة الأولى عن مشاعر الحبّ التي أكنّها إليه.

بعد ساعات على وصول بشرى إشارة الانطلاق، وتحت جنح الظلام الدامس انطلق قسّام ليحضر سيّارتيّ الجيب المفخّختين الواحدة تلو الأخرى، من منزل خالته أمّ البنّا إلى منزل خالته أمّ كوثر، وذلك ضمن الخطّة التي اتّفق عليها مسبقًا، والمتمثّلة بإبعاد أصابع الاتّهام والشبهة عن أمّ البنّا وتوجيهها نحو أمّ كوثر ومنزلها، الذي استعدّت لتحويله إلى كتلة من اللهب في حال مداهمته من قبل العدوّ.

وما إن تمكّنت شمس فجر الحرية والانتصار من طرد ظلم وظلام الليل الدامس حتّى وَصَلَت مع أوّل شعاع ضوء له جنان، التي حاولتُ جاهدة وحتّى اللحظة الأخيرة قبل الانطلاق إقناعها بالعدول عمّا نَوَت الإقدام عليه؛ بسبب كونها أمًا لأبناء يحتاجون حضنها الدافئ، ولعلمها التربويّ والدينيّ الدافق.

وقد حَسَمَت جنان النقاش وأمرها حين قالت: « كيف يا ملاك لأمٍّ أن تكون قدوة لأبنائها وأهلها ما لم تقرن قولها الذي كانت تردّده على مدى أعوام عدّة بفعلها الحقيقيّ على أرض الواقع، وما لم تعمل على إكمال مشوار زوجها الذي ضحّى بحياته تحت سياط جلّاديه؟!»

وأردفت قائلة أنّ أبناءها على وشك التخرّج من الجامعات التي يدرسون فيها، وأنّها تريد هي الأخرى أن تتخرّج من جامعة المقاومة والتضحية، الجامعة التي لا يتخرّج منها إلّا من كان في سبيل الله.

مَضَت ساعات الانتظار، ونحن ما بين مصلّية داعية، وقارئة للقرآن متهجّدة، حتّى حانت ساعة الانطلاق، عندما أذّن المؤذّن معلنًا وجوب صلاة الظهر، فصلّينا ثمّ وَدَّعتُ أنا وجنان الحاجّة أمّ كوثر التي كانت قد بقيت وحيدة في منزلها الذي وَدَّعَه من شاركنا في عمليّة الإعداد والاستعداد، لننطلق نحو أهدافنا التي سبق لنا رصدها، فركبتُ في سيّارة الجيب المفخّخة، وركبت جنان في السيّارة الأخرى وانطلقنا معًا، بعد أن ارتدت كلّ واحدة منّا باروكة للشعر المستعار كنوع من التمويه، نحو مدينة رام الله حيث كان الافتراق، وعندها واصلت سيري باتّجاه مدينة القدس المحتلّة من قبل الصهاينة، بعد أن ودّعتُ جنان التي توجّهت نحو مدينة رام الله المستباحة من قبل غربان الاحتلال وأعوانهم الجاثمين على صدرها.

وهنا أجد نفسي ملزمة بترك الحبيب نبيل يكمل لكم ما بقي من الحكاية، من خلال عرضه للوصايا التي بحوزته، حيث يفترض به أن يقوم ببثّها فور وروده نبأ عمليّاتنا الجهادية الاستشهادية تباعًا من خلال وسائل الإعلام ووكالات الأنباء.

جنان.. وأنا.. ثمّ أمّ كوثر

الوصايا.. الوصية الأولى:

وردنا الخبر العاجل الذي يفيد بوقوع انفجار ضخم جدًا جدًا في مقرّ الأجهزة الأمنية الصهيونية في الضفة الغربية.

ما إن تأكّدت من خبر الانفجار الأوّل الذي أحدثته سيّارة الجيب التي كانت تقودها الاستشهادية المجاهدة التي غدت شهيدة عند ربّها، حتّى قمت ببثّ تسجيل الفيديو الخاصّ بالمجاهدة جنان، حيث جاء في التسجيل الوصية الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ آل عمران: ١٦٩-١٧٠

أنا الشهيدة الحيّة بإذن ربّها جنان ابنة فلسطين، وزوجة المهندس الفلسطينيّ المجاهد الذي أثخن بالعدوّ الصهيونيّ المحتلّ، ذلك العدوّ المجرم الذي أجبر رغم أنفه على إطلاق سراح زوجي، بعد أن كان قد حكم عليه بالأحكام المؤبّدة المتراكمة، من خلال صفقة مشرّفة لتبادل الأسرى تمّت بين المقاومة الباسلة والمحتلّ الصهيونيّ الخاسئ، وما إن تمّ إطلاق سراح زوجي من سجون المحتلّ حتّى قامت أجهزة الأمن الخاضعة للمحتلّ باعتقال زوجي بأمر مباشر رئيسها.

اعتقل زوجي على أيديهم ليزجّ به في أقبية تحقيقهم التي حوّلوها لمسالخ تناهشوه فيها تناهش الكلاب الضالة الظالمة، وعذّبوه داخلها عذابًا تعجز كلماتي عن وصفه انصياعاً لأوامر المحتل الجبان، لذلك قرّرت وبملء إرادتي أن أمضي في سبيل الله ولله، مفجّرة سيارتي المفخّخة التي اقتحمت بها مقرّ أجهزة المحتل الأمنية، اقتحمت مقرّهم الذي يصدرون منه تعليماتهم لجنودهم وأعوانهم بضرب شرفاء وأحرار وطني، سيارتي التي أحدّثكم وأنا أقف أمامها وأمام أخواتي حرائر فلسطين اللواتي أقسمن على المضيّ قدمًا في نفس الدرب المقاوم جعلتهم أشلاء.

وهنا يجب أن تعلموا يا من تستمعون وتشاهدون وصيّتي هذه أنّ الله سبحانه وتعالى جعل مساعدة الأعداء في مخطّطاتهم من أفظع الجرائم وأكبر المنكرات، وكان ذلك مظهرًا من مظاهر موالاتهم، فمصير حماة المحتل هو الخزي والعار في الحياة الدنيا وعذاب جهنّم في الآخرة، فهم الخنجر المسموم الذي تُطعَنُ به المقاومة المرة تلو الأخرى.

أنا الشهيدة الحيّة.. أختكم جنان، التي تدعو الله أن تلتقي بكم في جنة الخلد، أبنائي ادعو لي الله بأن يتقبّلني عنده شهيدة، فأنا في سبيل الله انطلقت رافعة راية لا إله إلّا الله محمّدٌ رسول الله، مبتغية إعلائها وإحقاق الحقّ.

جنان ابنة فلسطين

الوصايا.. الوصية الثانية:

بعد مرور سبع وستين دقيقة على الانفجار الأوّل الذي قامت به الشهيدة جنان، تمّ الإعلان في خبر عاجل تناقلته وكالات الأنباء والمحّطات الإخبارية يفيد بانفجار سيّارة جيب مفخّخة، كانت تقف على جانب أحد الطرق المؤدية إلى مقرّ الحكومة الصهيونية في القدس المحتلة، قبل أن تقوم سائقة الجيب المفخّخ باقتحام موكب رئيس الحكومة الصهيونية، عندما كان في طريق عودته إلى مقرّ عمله، بعدما تناول طعام الغداء في مقرّ إقامته في مدينة القدس المحتلّة.

«سائقة مجهولة الهويّة قامت باقتحام موكب رئيس الحكومة الإسرائيلية.»

«عشرات القتلى والجرحى جرّاء انفجار السيّارة المفخّخة.»

«هل هي المهندسة؟!»

«انفجاران متتاليان لا يفصل بينهما سوى ساعة أو أكثر بقليل، أولها استهدف مقرّ الأجهزة الأمنية الصهيونية، وثانيهما استهدف موكب رئيس الحكومة الصهيونية»

«مات الرئيس.. لا، لم يمت»

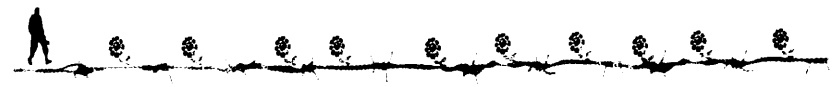

هبّوا يا أحرار فلسطين، يا أحرار الوطن والدين، فنحن حرائر القدس، ورام الله، ونابلس، والخليل، وجنين، نحن حرائر الضفة ويافا وحيفا واللد والناصرة، نستنصركم.. فهبّوا يا رجال قبل أن تفقدوا رجولتكم، وقبل أن نواصل نحن حرائر فلسطين والقدس والأقصى أخذ الزمام، والحزام والعبوة والبندقية، هبّوا كما هبَّ المعتصم عندما استنصرته حرّة واحدة، فما بالكم بحرائر فلسطين اللواتي تستنصركم الواحدة تلو الأخرى؟! هبّوا وفجّروا واطعنوا، واطعنوا قبل أن يُطعن في رجولتكم، فنحن أخوات المرجلة، مرجلة الأحرار الذين قاموا فَحَموا الدين والعرض والدار، لا مرجلة ذنب الأفعى، الذي خان الدين وفرّط في العرض وباع الدار للصهاينة الكفّار.

أنا ابنتكم الشهيدة الحيّة ملاك الطبيبة، التي حملت لواء المهندسة المقاومة عندما عجزتم أنتم عن حمل الأمانة، وتخاذلتم وتقاعستم عن أداء دوركم الجهاديّ المقاوم.

وداعًا والدتي، وداعًا جدّتي، وداعًا لِلَّتَينِ وقفتا إلى جانبي لتشدّا من أزري وعزمي، ولتباركا عملي الجهاديّ، أمّي يدك أقبّل، جدّتي يدك أقبّل، لأنّكنّ أمهات حرائر من حرائر القدس والأقصى وفلسطين.

إنّ وقوف والدتي وجدّتي إلى جواري أثناء تصويري لوصيّتي كان من أجل أن يعلم القاصي والداني أنّ الحرّة لا تنجب إلّا حرّة، جدّتي حرة وأمّي حرّة، فكنت أنا الأخرى حرّة وعلى طريق الحرائر في سبيل الله انطلقت، بعد أن توكّلت على الله وأوكلت أمري لله.

فيا أمّهات فلسطين.. اعملنَ على تربية بناتكنّ وأولادكنّ تربية ربّانية، لا تربية دنيوية، ولَكُنَّ في حرائر مصاطب العلم في المسجد الأقصى خير قدوة في زماننا هذا، ولَكُنَّ في حرائر قطاع غزة العزّة والمقاومة خير قدوة في زماننا هذا، فاعملنَ يا حرائر على أن تَكُنَّ أنتُنَّ القدوة الحسنة التي يُحتذى بها ويُسار على نهجها، نهج القرآن والبندقية والسنة النبوية.

لم أهتمّ كثيرًا إن كان الرئيس المحتلّ قد تحوّل إلى رماد متناثر جرّاء الانفجار، بل كنت مهتمًا بتلك الحرّة جنان، وأختها حبيبتي ملاك، اللتين ضحّتا بحياتيهما من أجل القضاء على المحتلّ الصهيوني، وما إن تأكّدتُ من خبر الانفجار الثاني الذي أحدثته سيّارة الجيب التي كانت تقودها المهندسة الاستشهادية، ملاك الحبيبة، التي لم يكتب لي الله أن أجتمع بها تحت سقف واحد في هذه الدنيا، ملاك الملاك، حتّى قمت ببثّ تسجيل الفيديو الخاصّ بها، وقد احتوى التسجيل على الوصية الآتية:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ التوبة: ١١١

أنا الشهيدة الحيّة ملاك التي في سبيل الله خطت أولى خطاها، عندما قرّرت أن تترك مشرط الطبيبة المداوية لتحمل سكّين المقاومة الجارح، ثمّ كبرت وحملت على عاتقها السير على طريق المهندس يحيى عيّاش، لتكون مهندسة مقاومة، مهندسة مفجّرة، ففجّرت العديد من العبوات الناسفة، ابتداء من تلك التي فجّرها أبطال (كتيبة عواصف الجثامين) مرورًا بالعبوات المتناثرة التي تلت تسليم الجثامين، وصولًا إلى السيارة المفخّخة التي قادتها وعملت معي جنبًا إلى جنب لتفخيخها أختي المجاهدة جنان، التي سبقتني بعون الله وقدرته إلى جنة الخلد، بعد أن تمكّنت ظهر اليوم من اقتحام مقرّ الأجهزة الأمنية الصهيونية في الضفة الغربية وتفجيره.

فلسطينية هي جنان حالها كحالي، وحالي كحالها، فهي من ضربت وفجّرت رأس أجهزة الأمن الصهيونية، أمّا أنا فكان دوري ضرب وتفجير وقطع رأس الأفعى الصهيونية، فجنان من هناك.. من الضفة الغربية، حيث تدير الأفعى اللعينة مؤامراتها ومكائدها، وجنان أدرى منّي بشعاب الضفة، وأنا أدرى منها بشعاب القدس، وأنت يا من تستمع إلى وصيّتي وكلماتي هذه أدرى بشعابك التي تسكن في حواريها، فقم وقف على أقدامك ممتشقًا السلاح لكي تطهّر به أرضنا من المحتلّ الصهيونيّ.

وداعًا فلسطين بقدسها وأقصاها، وداعًا بعد أن أودعت الأرض المقدّسة أمانة عند الحرائر والأحرار، لعلّهم يتمكّنون من تحريرها وتطهيرها بعون الله الواحد الجبّار.

ومرحبًا بأخي الشهيد مالك، الذي سأكون إلى جواره، ما إن تبثّ هذه الوصية بعون ربّ البرية، مرحبًا بالشهداء الأبرار، ومرحبًا بالمجاهدين الأخيار، وسحقًا للأحياء جسدًا والأموات روحًا، سحقًا للمتخاذلين القاعدين الخانعين.

أختكم الشهيدة الحيّة، التي في سبيل الله ولله انطلقت، حاملة لواء لا إله إلّا الله محمّدٌ رسول الله.

أختكم ملاك الطفلة، التي عشقت الّينَ وفلسطين، فغدت مهندسة من مهندسات الدّين وفلسطين.. ملاك الرحمة.

مرّت الساعات ثقيلة جدًا، بعد زمن قليل من الوصية الثانية (وصية ملاك) التي أعقبت وصية جنان، وأنا أنتظر بثّ الوصية الثالثة، وغفت عيناي بعد أن صلّيت الفجر، قبل أن أتمكّن من سماع خبر انفجار منزل أمّ كوثر، إلّا أنّني قاومتُ النوم وبقيتُ متسمّرًا أمام شاشة الحاسوب، باحثًا عن أيّ خبر أو معلومة تفيد باقتحام القرية التي تقطن بها الحاجّة أمّ كوثر.

فمنزل جنان تمّ اقتحامه بعد أن فرض الصهاينة منعًا للتجوّل على قريتها، تلك القرية التي خرج أهلها عن بكرة أبيهم منتفضين ومتصدّين للقوّات الصهيونية، خرج أهل القرية مهلّلين مكبّرين انتصارًا لما أقدمت عليه ابنتهم وابنة قريتهم، حالهم كحال أهل القدس الذين تصدّوا للقوّات التي اقتحمت منزل الشهيدة ملاك، نعم ملاك، التي ما عادت بشرًا يمشي على الأرض، بل ملاكًا من نور، بعد أن حوّلت موكب كبير المحتلين إلى كومة من لهب ونار.

مات الرئيس.. عاش الرئيس

لا أنباء أكيدة حتى الآن عن الذين تمّ استهدافهما من قبل ملاك الجنّة، وجنان الملاك، ولا أخبار أيضًا عن اقتحام القرية التي أُعدَّ أحد منازلها لكي يحصد الأرواح النجسة التي ستقتحمه وكأنها كلاب لا بشر.

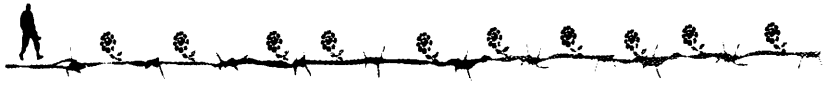

بعد الخامسة فجرًا بعدّة دقائق، اقتحمت قوّة صهيونية خاصّة منزل أمّ كوثر، التي قامت بتحويله إلى أثر بعد عين، حيث تناقلت المصادر الإخبارية أنّ الانفجار الذي نجم عن المنزل المفخّخ أدّى إلى وقوع العشرات بين جرحى وقتلى، سواء في القوّة المقتحمة أو القوّة المساندة التي كانت تحيط بالمنزل من الخارج، لقد أردفت تلك المصادر الإخبارية قولها بأنّ المنزل المفخّخ كان متخمًا بالعبوات الناسفة والإسطوانات المليئة بغاز الطبخ، بالإضافة إلى كميّات كبيرة من وقود البنزين شديد الاشتعال.

«نار ولهب وجدران تناثرت بعد أن اختلطت بأشلاء القوّات المقتحمة»

هذا ما ذكرته إحدى وكالات الأنباء، وقد ذكرت محطّة إخباريّة أخرى: «الضربة الثالثة للمقاومة لا تَقلُّ إيلامًا عن الضربتين الأولى والثانية».

«أخبار أوليّة تفيد بأنّ منفّذة عملية التفجير هي صاحبة المنزل المستهدف، والذي يعتقد أنّ الاستشهاديتان جنان وملاك كانتا قد انطلقتا منه بعد أن أعدّتا السيارتين المفخّختين».

كما أنّ مواقع المقاومة تناقلت تعليقات وأخبارًا كان أهمّها:

«من مات؟ ومن عاش؟»

«بل من عاش؟ ومن مات؟»

«فرض حالة منع التجوّل على كافة المناطق التي تسيطر عليها أجهزة أوسلو الأمنية»

«قوّات الاحتلال تفرض إغلاقًا شاملًا على كلّ مناطق الضفة الغربية»

«مظاهرات عارمة تجتاح الضفة الغربية ضدّ الاحتلال وأعوانه، الذين باتوا مطاردين وملاحقين من قبل المنتفضين»

«قوّات صهيونية كبيرة العدد، كثيفة العتاد، تجتاح مناطق سيطرة السلطة من أجل حماية مقرّات الأجهزة الأمنية الأوسلوية ومقرّات إقامة مسؤولي السلطة»

«حرق المئات من المقارّ الأمنية»

ليس المهمّ بنظر الأحرار إن كان الرأس أو الذنب هما من ماتا، بل المهمّ اللواتي استشهدنَ فغدونَ أحياء عند ربهنّ، استشهدنَ فأحيينَ همّة الشعب الذي لن يموت، ولن يستسلم وسيواصل السير في سبيل الله ولله، من أجل التخلّص من قيد المحتلّ والمنحلّ، ومن أجل تحرير فلسطين وتطهيرها من بحرها إلى نهرها، من دنس من دنّسوها.

انتظرتُ حتّى استيقظ أهل فلسطين كافّة من سباتهم ونومهم وغيبوبتهم وتوهانهم، قبل أن أقوم ببثّ الوصية الثالثة، وصيّة الحاجّة أمّ كوثر، حيث جاء في تلك الوصية:

بسم الله الرحمن الرحيم: قال تعالى: ﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ النساء: ٨٤

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الأنفال: ٦٥

أنا الشهيدة الحيّة أمّكم.. أمّ كوثر، التي في سبيل الله سارت وعلى الله توكّلت، مفجّرة منزلها محوّلة إيّاه إلى جوف بركان هادر، فهل تعلمون لماذا أقدمتُ على هذا العمل؟!

لقد أقدمتُ على تفجير منزلي هذا الذي أحبّ، والمليئ بذكرياتي الحلوة والمرّة، لأنّني أرفض أن يُدَنَّسَ بيتي ويُستَباحَ من قبل المحتلين الصهاينة، فمنزلي حاله كحال فلسطين بقدسها وأقصاها، فلسطين التي استُبيحت ودُنّست من قبلهم، فتحوّلت إلى مرتع لأفّاقي الأرض وشذّاذها، فجّرتُ نفسي وأنا الأمّ العجوز كبيرة السنّ لأنّني أعلم أنّ أسباب الموت تعدّدت، وأنّ خيرها ما كان في سبيل الله ولله.

سرتُ نحو طريق الشهادة والاستشهاد لأنّي أريد أن أحضّكم وأحرّضكم على التضحية بمتاع الدنيا الزائل، والتطلّع إلى ما عند الله، فهو الباقي والدائم؛ فمنزلي الذي فجّرتُ حاله كحال منازلكم، ما هو إلّا منزل من طين وحجر وتراب،

منزل من إسمنت وحديد وخشب، إن لم يُكنَس كل يوم كَثُرَت فيه القمامة، وإن لم يُسرَج فما أشدَّ ظلامه! وإن لم نتعاهده بالصيانة والبناء فما أسرع انهدامه! وإن ما تعاهدناه فمآله إلى الخراب وعن قليل يصير كالتراب، يتفرّق عنه سكّانه، ويعفو أثره، ويندرس خبره، ويمّحي رسمه، ويُنسى اسمه واسم من سكنه.

فها أنا ذا بعملي الجهاديّ الاستشهاديّ هذا أحضّكُم وأحرّضكُم على الجهاد والاستشهاد لكي تستبدلوا ببيوتكم وفللكم وقصوركم الفانية، دارًا باقية قصورها عالية، وأنوارها زاهية، وأنهارها جارية، وقطوفها دانية، وأفراحها متوالية.

والله إن سألتم عن بناء الجنّة فلَبِنَةٌ من فضّة، ولَبِنَةٌ من ذهب، لا تعبٌ فيها ولا نصب، وإن سألتم عن ترابها فالمسك الأذفر، وإن سألتم عن حصاها فاللؤلؤ والجوهر، وإن سألتم عن قصورها فالقصر من لؤلؤة مجوّفة طولها سبعون ميلًا في الهواء، أو من زمرّدة خضراء باهرة البناء، أو ياقوتة حمراء عالية البناء، وللمؤمن في كلّ زاوية من زواياها أهل وخدم، لا يبصر بعضهم بعضًا لسعَة الفناء، وإن سألتم عن فرشها، فمن إستبرق بطائنها، فما ظنّكم بظهائرها ؟!، وإن سألتم عن أنهارها، فأنهار من لبن، وأنهار من عسل، ونهر الكوثر.

اللهمّ تقبّلني شهيدة عندك، وأدخلني في جنّة خلدك، وأسكنّي في مساكنها، وارونِي من أنهارها اللبن والعسل والكوثر، الكوثر يا الله منه اسقِني وارونِي، وارو كلّ من سار على درب المقاومة والجهاد.

والله إنّ الإقدام خير من الإحجام، والشجاعة خير من الجُبن، وها هما بنتاي ملاك وجنان تتقدّمان الواحدة تلو الأخرى نحو درب التضحية والفداء، وابتغاء مرضات الله، وإحقاق الحقّ، درب التصدّي للمحتلّ والمنحلّ، فالفئة المؤمنة مهما صغر عددها وقلّ، فمن الله نصرها ومن الله توفيقها.

فوالّذي نفسي بيده إنّ النصر في معركتنا مع الصهاينة ماهو إلّا صبر ساعة، ساعة في أرض المعركة والجهاد، لا ساعة في مراتع الهوى والهوان، ساعة يعزُّ بها الله من يشاء، ويذلُّ بها من يشاء.

أمّكم الشهيدة الحيّة.. أمّ كوثر التي سارت في سبيل الله على نفس الدرب والطريق الذي سبقتها فيه مئات المقاومات والمجاهدات والاستشهاديّات اللواتي ضحّين بالغالي والنفيس في سبيل الله.

الشهيدة الحيّة أمّ كوثر

ما إن انتهت الشهيدة الحيّة أمّ كوثر من النطق بآخر كلمات وصيّتها حتّى قامت الشهيدتان الحيّتان عند ربّهما ملاك وجنان باحتضانها وتقبيلها، ثمّ أخذنَ بعد ذلك بتوديع بعضهنَّ البعض، وفي تلك الأثناء انضمَّ إلى الشهيدات الثلاث عدد من المجاهدات الاستشهاديات اللواتي تزنَّرنَ بالأحزمة الناسفة، أحزمة الاستشهاديات اللواتي نوينَ السير في سبيل الله، نحو طريق الجهاد والاستشهاد.

كم كان ذلك المشهد عظيمًا ومهيبًا! مشهد يعجز قلمي عن وصفه كما سبق لقلم ملاك وأن عجز عن وصف مشاعرها في العديد من المواقف التي مرّت بها! ما إن انتهيتُ من بثّ الوصية الثالثة (وصية أمّ كوثر) حتّى قمت على الفور بإتلاف كلّ الأدلّة الملموسة والإلكترونية البرمجية التي يمكن أن توجّه أصابع الاتّهام نحوي، فأنا لا أريد أن يتمّ اعتقالي وسجني بتهمة التحريض الإعلاميّ، أو بتهمة مساعدة حرائر القدس في القيام بواجبهنّ الجهاديّ.

فلا يعقل أن أُسجَنَ وأزجَّ خلف أسوار المعتقل، وحبيبة القلب ملاك الرحمة هناك في الجنّة تنتظر وصولي على أحرٍّ من الجمر، لذلك حَزَمتُ أمري، وعاهدتُ ربّي بأن أسير في سبيله، سير المجاهد الاستشهاديّ الذي باع نفسه لباريها فحمل السلاح ليجتاز الحدود نحو فلسطين، ليصبَّ على الصهاينة المحتلّين جامّ نيران بندقيته وقنابله اليدويّة.

والله لن أعود إن اجتزتُ الحدود، فإن نفد الرصاص من بندقيّتي فليس للصهاينة عندي سوى الطعن بالسكّين، وإن كُسرَ نصلُ سكّيني فليس لهم عندي سوى أنيابي التي سأغرسها في أعناقهم لأدميها.

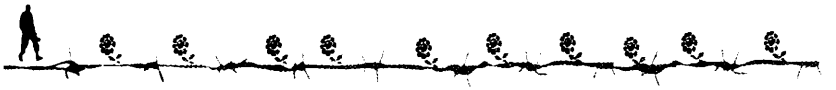

قبل أن أنطلق نحو هدفي سأعمل على برمجة جهاز حاسوبي حتّى يقوم ببثّ وصيّتي التي انتهيت من تصويرها، بعد إكمالي بثّ وصايا الشهيدات أم كوثر وجنان وملاك.

ملاك، ملاك الرحمة التي سارت في سبيل الله، فأحببتها وأحببتُ أن أقتدي بها وأسير خلفها على نفس الطريق الذي خطته بعد أن كانت آثاره على وشك الزوال.

قالوا: وراء كلّ رجل عظيم امرأة..

وأقول: والله إنّ أمام كلّ رجل عظيم امرأة أعظم وأسمى وأعلى..

فما بالكم إن كانت تلك المرأة التي أسير خلفها هي ملاك!؟ ملاك الرحمة.

المهندسة.. ملاك الرحمة

# الخاتمة

الخاتمة والنهاية، نعم فلكلّ حكاية نهاية، وتلك كانت خاتمة روايتي، ونهاية قصّة بطلتي، التي أحبّت فلسطين بقدسها وأقصاها أكثر من أيّ شيء في هذه الدنيا الفانية.

ملاك التي جعلتُها تفجّر نفسها استشهادية لكي أخطَّ بها ومعها صفحة جديدة من صفحات التضحية والفداء والاستشهاد.

ملاك بطلتي وبطلتكم التي امتلكت كلّ شيء، الدين والعلم والمال والحبيب، وضحّت بكلّ شيء في سبيل الله ولله.

في سبيل الله انطلقت، قبل ملاك المقاومة وبعدها، عشرات ومئات الحرائر، ليطعنّ بسكاكينهنّ، وليدهسن بسيّاراتهنّ، وليطلقن بارود الرصاص من بنادقهنّ، ويفجّرن العبوات والأحزمة الناسفة والسيّارات المفخّخة، والمقالات والكتابات والتعليقات المقاومة والمحرّضة.

كم كنت أودّ لو أنّني أبقيتُ على بطلة روايتي حيّة على الورق، وحية تمشي على الأرض، لا ملاكًا محلّقًا في السماء، فعلى الرغم من قناعتي التامة والتي مفادها أنّ استشهاد بطلتي وبطلتكم ملاك هو الحياة، وهو الهدف والغاية التي يتمنّاها كلّ من سار على درب الجهاد والمقاومة، إلّا أنّني أعلم أيضًا أنّ معركتنا ضدّ المحتلّ الصهيونيّ والمنحلّ الأوسلوي لا تزال معركة طويلة ومتواصلة، فهي معركة الحقّ الظاهر ضدّ الباطل الباطن، لذلك نحن بحاجة إلى من هم على شاكلة بطلة روايتي ملاك المهندسة المقاومة، لا ملاك الطبيبة المداوية، ملاك المهندسة التي وصلت هي الأخرى على الرغم من كونها بطلة من (حبر وورق) إلى

قناعة مفادها أنّه لم يعد في فلسطين التي يحكمها المحتلّ والمنحلّ مهندسون رجال قادرون على حمل الأمانة، وإكمال مشوار الجهاد والمقاومة.

فهل يا ترى سيأتي اليوم الذي سأرى فيه أنا الكاتب وترى فيه بطلتي (ملاك المهندسة) مهندسة تحمل اللواء والأمانة من بعدها، ومهندسًا يحمل اللواء والأمانة من بعد المهندس يحيى عيّاش؟

كُتِبَتْ هذه الرواية في الأسابيع الأولى لانطلاق انتفاضة حرائر القدس، كُتِبَتْ وكاتبها المهندس القسّاميّ مكبّل بالسلاسل والقيود داخل سجون بني صهيون، بعد أن كان مكبّلًا ومعتقلًا في سجون بني أوسلو، على نفس التهمة والسبب، وهو مقاومة الاحتلال والانحلال.

الأسير المهندس
عبد الله غالب البرغوثي
أمير الظلّ
معتقل رامون الصحراوي